محمد خير

إفلات الأصابع

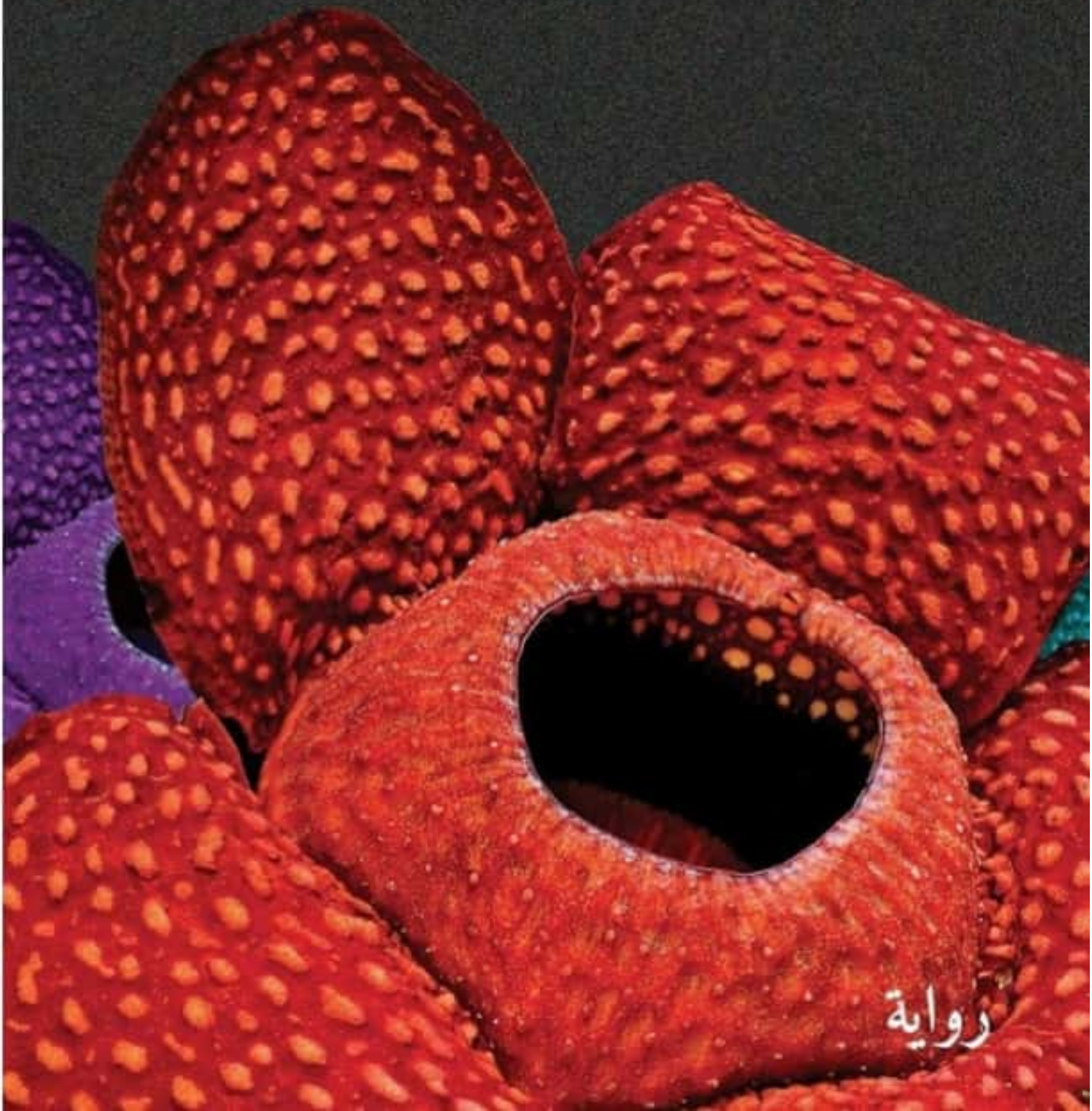

رواية

محمد خير

إفلات الأصابع

خان للنشر والتوزيع

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب، بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة، أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذنٍ خطّي من الناشر.

©الكتب خان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

13 شارع 254 - دجلة - المعادي - القاهرة.

هاتف:+20225196569 - +20225170678

e-mail: info@kotobkhan.com

www.kotobkhan.com

تابعونا على

kotobkhan@

Al Kotob Khan

إلى كوكو وريم، الرحيق والوردة.

الفصل الأول: مشينا على الماء وقابلنا غريبا

(١) أوامره

ناداه اللحم الحلو من وراء زجاج ثلاجة المحل، وبدا له –في الحر والصيام– كأنه قطعة من قشدة حمراء مستعدة لأن تذوب من تلقاء نفسها في الفم، وفكّر أن يشويه في الحوش الصغير أمام الباب، وحاول أن يتذكر مكان الشواية ولم يستطع، لكنه حين عاد إلى البيت فوجئ بأمه منهمكة في المطبخ بين الحلل والأدوات، كانت المرة الأولى التي تدخل فيها المطبخ منذ مات أبوه قبل شهور.

رأت كيس اللحم في يده فقالت له بصوت منهك: ضعه في الثلاجة، أبوك قال اطبخوا بطّ.

ارتعش للحظة متشككًا في عقلها، لكنها تابعت ببساطة: "جاءني في المنام». كان جالسًا كعادته على الكرسي الكبير بجوار التلفاز، يرتدي جلابية العيد، وقال لي: اعملي بطتين يا سيّدة.

فقلت له: البطّ ثقيل على البطن، يُتعب بعد الصيام.

لكنه أصرّ: اعملي بطتين، إنه موسم.

فقالت: حاضر.

فالتفت أبوه يتابع التلفاز، أما هي فاستيقظت على دموعها.

ونهضت ونزلت إلى المركز القريب من العزبة وقبضت المعاش، معاشها ومعاشه، وعرجت على المنفذ الاستهلاكي، اشترت البطتين ومستلزماتهما، وعادت، أضاءت نور المطبخ وارتعشت ركبتاها في المدخل،

قضت هنا عمرها كله وتشعر الآن كأنها غريبة فيه أو جديدة عليه.

غير أن الغربة الكاذبة الأولى ذابت خلال دقائق، وتركت محلها للانهماك العذب وللعرق في حرارة المطبخ الضيق، التهما في الإفطار بعضا من البطة وتركت بقيتها في الثلاجة، البطة الأخرى أهدتها للجيران.

- طلب منك هذا أيضًا؟ سألها.

- لا. أجابت، رقيّة ساندتني كأنها أختي، نذرتُ أن أذيقها من أول طبخ.

هزّ رأسه، ودخل لينام قبل نوبة الليل، وبعد يومين وقف على الباب يسألها إن أرادت شيئًا، قالت له: لا داعي لهذا القميص يا أحمد، ارتد الأزرق.

رأته في رؤيا أمس مع أبيه يضحكان، والأب يجمع شيئًا من جيبه ويعطيه للابن، والابن يتأمل الشيء فرحًا وكان يرتدي قميصه الأزرق.

«البس الأزرق يا ولدي»، أعادت طلبها، «ليكرمك الله اليوم».

هكذا، ومنذ يوم البطّ، وبعد أقل من أربعة أشهر على رحيله، انبعث أبوه من جديد في البيت، يحدد إفطارًا أو عشاء، يذكّرهم بزيارة قريب بعينه، أو يخبر الأم عن أماكن أوراق معينة مختبئة بين الكراكيب.

ثم بدأ مع الوقت يتخذ قرارات أخطر شأنًا، كان أحدها حين طلب من الابن، بلغة الأحلام المشفّرة ذاتها، أن يترك وظيفة الليل، وبدأ الابن يتململ ثم يتذمّر، عادت

إليه ربكة المعدة التي كانت تصاحبه في حياة أبيه، صار يتوقع في أي لحظة أنه سيراه جالسًا على كرسي الصالة أو يصطدم به وهو يتوجه إلى الحمّام، وكلما تلكأ في تنفيذ أوامر الأب التي تأتي عبر المنامات والرؤى، بكت الأم عن جزع حقيقي «ربنا يحميك يا بني»، تقول وفي معنى كلامها يستتر معنى آخر، أن تلك الحماية موقوفة على عدم إغضاب الأب حتى بعد موته.

ومع الوقت داخَله شعور بأنها ربما صارت تخترع تلك المنامات، خاصة حين ترجمت إحدى رؤاها بأن يستبعد فتاة كان يفكر في خطبتها، ثم فتاة أخرى اقترحها سريعًا بعد الأولى، «أبي لم يكن ليرفض أبدًا أن أتزوج»، هكذا فكّر، وزاد شكّه في رؤى الأم وبدأ يكذّب وحيها وإن لم يجرؤ على قول ذلك إليها صراحة، كانت موجات الشكّ تلك تتصاعد أحيانًا فيغضب منها، أو تنخفض فيغضب من أبيه لمواصلته التحكم في البيت من قبره، وفكر للمرة الأولى أن يغادر البيت، وعندها أتاه أبوه في المنام للمرة الأولى، وقف عند مدخل الغرفة حزينًا، وأشار برأسه إلى اتجاه غرفة نومه، وقال له: قُم، أيقظ أمك.

(٢) المارة لم يهتموا بما نفعل

في السماء كانت السحب تتهادى بحذر كأنما تخشى أن تنسكب، وعلى الأرض كنت أجدّ الخطى خلف بحر محاولًا اللحاق بخطوته السريعة رغم قصر ساقيه، قادني عبر شارع صغير لكنه واسع الشرفات في محرم بك، وتوقف أسفل بناية كبيرة صامتة تحتل ناصيتين، مكثنا تحتها قليلًا حتى بدا على بحر أنه تذكّر، عاد ليمشي حتى وصلنا إلى شارع عريض أنارته بلطف شمس بدايات الشتاء السكندري.

هناك حيث وصلنا تساندت البنايات القديمة صفراء متقشّرة وبعيدة على الجانبين، وامتدت عبر الأرض شبكة هائلة من قضبان الترام وقد تداخلت في نفسها كالشرايين، تحرّك بحر منقّلًا قدميه بينها وتبعته بحذر، كان ينظر إلى الأرض بتركيز، كمن يتذكّر مع أنه يرى، ويعبر قضيبًا تلو الآخر فأعبر خلفه.

وعند نقطة بعينها توقف بحر لثوان، ثم همس: هنا.

وجذبني لأقف خلفه بالضبط.

في اللحظة نفسها، انبعث من بعيد صوت الدمدمة المعدنية المميزة لعجلات الترام، وأخذ الصوت يرتفع بالتدريج، ومن الجهة الأخرى، خلفنا، انبعثت دمدمة شبيهة كأنها صدى الصوت الأول.

ومن موقعي خلف بحر، حيث يعلو رأسي هامته القصيرة، رأيت الترام قادمًا من الجهة اليمنى، يتبعه شقيقه قادمًا من اليسرى، كان الترامان يتجهان مباشرة

نحونا فبدأت ركبتي ترتجف لا إراديًا.

- بحر؟

لم يرد، ثم بعد ثوان قال:

- أغمض عينيك، إن شئت.

لم أجرؤ على أن أفعل، ولمت نفسي مجددًا على قبول تلك المهمة التي يتصاعد جنونها، وارتفعت الدمدمة واهتزت الأرض وتطاير الحصى الصغير، وأخذ الترامان يقتربان من الجهتين ويزدادان سرعة، وددت الهرب لكن بدا لي أن الوقت قد فات، وأنني قد أفقد طريقي وسط غابة القضبان على الأرض، وقد أجد نفسي على القضيب الخطأ، فبقيت محلّي.

وصل الترام الأيمن أولًا، تجاوزتنا المقدمة العجوز المتهالكة، وانحرفت بمقدار بسيط جدًا لكنه كان يكفي للعبور بجوارنا كأنه يلامسنا، وخيل إلي أنني رأيت قائد الترام ينظر إلينا من مقعده المرتفع بلا أدنى تعبير، وعندها وصل الترام الأيسر، يسير على قضبانه المتداخلة مع الآخر، وينحرف ملليمترات فيعبر إلى يسارنا، العربات من هنا ومن هنا تعلونا، صفراء كأنها ظل للبنايات على الجانبين، لو تحركنا ملليمترًا لدهستنا إحداها. كنا في قلب بقعة شبه دائرية بالغة الصغر خلقها توازي الترامين، صوت العجلات هائل ونَفَسُ الموت حاضر والضوء اختفى خلف سقف الترامين العابرين، ثم للحظة بين تقطع الضوء، رأيتها:

كانت تجلس إلى ماكينة الخياطة في ثياب النوم، وتنظر

إليّ متفحصة، قبل أن تقول لي بشيء من الدهشة:
كبرت يا سيف.
ثم اختفت كانطفاء نجمة، وبدا كأن الترامين العابرين حولنا لن ينتهيا أبدًا، ماذا لو أخطأ بحر؟ ماذا لو أزاحت السنون القضبان عدة ملليمترات، أو ماذا لو مال أحدهما بفعل العمر أو قلة الصيانة؟ هل يشعر المنتحرون بهذي الأحاسيس في الثواني الأخيرة قبل الدهس، هل يرون ما رأيت أم تقتلهم الصدمة العصبية قبل الصدمة الحديدية، ورحل الترامان أخيرًا، تلك «الأخيرًا» لم تستغرق سوى ثوان، لكني أخذت أتحسّس شعري كأنما لأعرف إذا ما ازداد الشيب فيه.
وعلى العكس منّي، بدا بحر منتعشًا، ما زالت «نقطة النجاة» - كما سمّاها ودوّنها في أوراقه- موجودة، هل أنشأتها الصدفة أم صممها مهندس ما عمدًا، كلعبة سرية، ومن اكتشفها هنا؟
وقبل أن أسأله، وضع بحر يده على كتفي وأشار برأسه عند نقطة التقاء الترامين حيث وقفنا، غمز بعينه وسأل مبتسمًا: ها؟ هل رأيت شيئًا؟
صمتّ مبهوتًا لحظة، وتابع هو سؤاله وقد اتسعت ابتسامته: من رأيت؟
أجبتُ بصوت كالفحيح:
- أميّ.
تطلّع إليّ للحظة دون تعبير، ثم هزّ رأسه ببطء لأعلى وأسفل، وقد بدأت نظرته تعكس شيئًا من خيبة الأمل،

فتح شفتيه ليقول شيئًا ثم تراجع، وأخيرًا قال بشفتين ممطوطتين: كلاسيك!

كنت ما زلت مأخوذًا فلم أعلّق، تأملت شعره الأشيب الأنيق ونظارته الحمراء الغريبة وحيويته التي فسّرتها بحياته الطويلة في الخارج، لم يكن يبدو إطلاقًا كشخص سوف يموت بعد أقل من شهر واحد، ولم أكن أعلم بذلك آنذاك ورغم ذلك فلا أستطيع استعادة تلك الذكرى دون أن أخرج موته منها، أرانا دائمًا، بين الحلم واليقظة، واقفين تحت تلك الشمس اللطيفة في محرم بك بينما لساني الثقيل يعجز عن تحذيره من موته القريب.

(٣) كنت فين يا علي؟

أول ما أحسَ كان حجرًا ثقيلًا حالكًا يستريح بكل ثقله فوق صدره ورأسه، وظن للوهلة الأولى، كما يحدث عادة في كوابيسه، أنه ميت، ثم شعر لجزء من الثانية أنه في إحدى نوبات شلل النوم الذي يحتلّ جسده حين ينام متعبًا، لكنه حين حرّك إصبعه تجاوبت أنامله ثم تحرك كوعه فذراعه، وتجرأ ففتح عينه وبهره ضوء الشمس فتطايرت ذبابات عشوائية أمام عينيه، وحرّك رقبته ووجد نفسه في أرض متربة مليئة بالنفايات كأنه في مقلب للقمامة، وكأنه يرقد في حفرة غارت سنتيمترات في الأرض، وشعر بألمٍ في مؤخرة الرأس وفي المفاصل وضيقٍ في صدره، ثم أحس بالأرض التي يرقد فوقها تهتز وخيل إليه أنه يسمع صوت أجراس كنائس تضرب بقوة، لكن الصوت بدا بعد ذلك أقرب إلى إنذار مزلقان القطارات وما لبث صوت صافرة هائلة أن أتى من بعيد وازداد قوة، أخذه الرعب وأغمض عينيه ثانية وحين فتحهما وجد قطارًا هائلًا وقريبًا جدًا يمر من أعلى يمينه وصافرته تثقب الآذان، وقبل أن يعود نبضه إلى طبيعته كان القطار قد ابتعد واختفى، ودفع ذراعيه أخيرًا في الأرض ونهض.

ونظر حوله ولم ير إنسانًا، من بعيد حام طائر لم يميّزه قريبًا من الأرض ثم ارتفع ثانية وابتعد.

أين أنا؟ وما الآن؟

سأل نفسه وتذكر اسمه بشيء من الجهد، وتحسس

جسده ولم يجد جروحًا رغم الآلام، ونظر مرة أخرى ولم ير في الأفق سوى أسطح بيوت تبدو من بعيد وقضبان حديدة ممتدة. ثم بزغ السؤال داخله فجأة:

نُهى؟! ماذا جرى لها؟

وتذكّر كل شيء دفعة واحدة وإن لم يتذكر ما أراد حقًا أن يتذكر.

كان قد انتهى من قصّ شعره وتزيين وجهه عند صديقه القديم في الحيّ، أهله في البيت ينتظرونه وأهلها في بيتها ينتظرونه، سيصحب أهله ويذهب إلى بيتها ويأخذها من محل الكوافير بالأسفل وإلى قاعة العرس ينطلقون وينهون رحلة الصبر والشوق والتعب ورعبها المقيم (لن تتركني؟ لن تتركني؟) تقولها كل يوم ولا تملّ ويسمعها فيضحك لأن روحه بين ضلوعها منذ زمن.

وخرج من عند صديقه الحلاق واتخذ طريقًا مختصرًا إلى المنزل، هناك سيرتدي بذلة العرس التي أوصى له بها صديق آخر بتخفيض محترم، البهجة قريبة أو هي - في الأقل– نهاية شوق وتعب، وآخر ما رأى كان أولادًا صغارًا يلعبون بأطواق معدنية وعربة ربع نقل تحمّل بعض البضاعة من حانوت صغير، وفتاتين تمشيان على مهل وامرأة ترش بعض الماء من شرفة قريبة من الأرض. والتف من خلف البيت الرمادي على ناصية شارع الأوقاف وعبر ممرًا ضيقًا لا أبواب فيه ولا نوافذ، وخرج من الطرف الآخر واتجه إلى اليمين يمدّ الخطى، وخيل إليه أنه سمع صوتًا أنثويًا ينادي فالتفت خلفه،

ولم ير سوى ظلام.

أين أنت يا علي؟ كم الساعة يا علي؟ ووجد ساعته في يمناه موجودة لم تسرق فاندهش، ونظر فيها وأصابه الرعب، الساعة الثانية عشرة والنصف، وهذي الشمس القوية في الأعلى تقول إنها الثانية عشرة ظهرًا لا ليلًا، وأنت غادرت الحلاق في الخامسة مساءً، لقد مرت الليلة يا علي، فات ليل كامل وأنت في النهار، يشهد على ذلك الساعة والشمس والجوع الهائل الذي بدأت تحس به، مرت الليلة التي كانت تنتظرك فيها نهى بين أهلها، مرت ولم تأت أنت إليها.

يا الله!

وفي جيبه أحس بوجود هاتفه الصغير، أخرجه ووجده مطفأ، حاول تشغيله فلم يشتغل، لقد فرغ من الشحن تمامًا كأنما لم يشحن من قبل قط. وداخله خوف إضافي كتمه، وتابع تفتيش نفسه، ها هي محفظة النقود، بطاقات الهوية، كل شيء في مكانه، فماذا جرى وماذا أفعل هنا؟ وتلفت حوله وتساءل: أين «هنا» أصلًا؟ وأين البشر؟

سأل نفسه عن البشر لأن البيوت التي وصل إليها بدت خاوية حتى من الأشباح، مشى ببطء ولم يلمح بشريًا واحدًا، لا رجل ولا شيخ ولا طفل، تحرّك بين البيوت الخاوية وأفزعه صوت الأبواب يحركها الهواء ولا تفضي إلى شيء، بيت وراء الآخر لا صوت ولا رؤى، هل انتهى العالم؟ لكنه تذكّر القطار الذي مرّ.

وخرج إلى طريق شبه سريع، ولمح لافتة مطمورة في التراب، أزاح بحذائه بعض الغبار عن الحروف وقرأ على اللافتة اسم مكان لم يعرفه، ومشى في الطريق وتنفس شيئًا من الصعداء حين لمح سيارات نقل متباعدة تمر من وقت لآخر، ولم تتوقف إحداها من أجله، وواصل المشي حتى بدت له على البعد بلدة أخرى.

وانتهى الرعب الخيالي حين لمح طفلًا يلعب عند مدخل بيت بعيد في البلدة التي وصلها، وبدأ الناس يظهرون أفرادًا وجماعات ماشين وراكبين وإن لم يعرف المكان بعد، وانتبه إلى أن جسده وملابسه ملوثان بالتراب فوقف جانبًا وأخذ ينفض نفسه.

ولمح بائعة خضرة فمشى بجوارها ووجدها تخفي وجهها بنقاب، وتابع السير وخاف أن يخبر أحدًا أنه تائه فيؤذيه أو يظن به الظنون، ووجد مقهى صغيرًا بجواره عربة لبيع الكبدة، فاشترى منها شطيرتين وجلس وجاء القهوجي بالماء أولًا ثم بالشاي. وكان تليفزيون صغير يعمل فاقترب منه ليرى ويعرف أي شيء، ولم يتعرف على الأخبار أولًا لكنه رأى بالجوار نتيجة حائط، ووجد اليوم الأحد فارتجفت ساقاه اللتان خرجتا من البيت آخر مرة يوم الخميس!

ثلاثة أيام من الغياب لا يوم واحد؟! ماذا يجري وماذا جرى له وللدنيا ولنهى؟

عرف كل شيء فيما بعد، عرف بالإغماءات والانهيار العصبي، عرف بالغضب الذي اشتعل في بيت أهلها

وبالإهانات التي لحقت بأهله، عرف بساعات الانتظار في البيت وقاعة الفرح، عرف بانصراف المأذون ثم المعازيم وصدمة المحبين وقلق ذوي الدم، وعرف فيما بعد باختفاء نهى وأهلها وإغلاق البيت، رأى دموع أمه وصمت أبيه وأسئلة إخوته تنهال عليه تطالبه بإجابة وتفسير لغيابه تلك الأيام الثلاثة؟ وخيل إليه أن الدنيا كلها صارت ٤ كلمات هي: أين – كنت - يا – علي؟

ولم يكن بجسمه الفارع كدمات أو جروح، ولم يُسرق منه شيء ولم يظهر في غيابه أحد يطالب بفدية ولم تأت اتصالات مريبة، وكأن مصيبة لو كانت لحقت به لحفظت ماء وجهه وإن قتلته. ولكن أيًا من ذلك لم يحدث، فقط خرج من الممر ذاك وسمع الصوت الأنثوي ثم استيقظ في بقعة تتوسط المسافة بين القاهرة والإسكندرية أو هي أقرب إلى الأخيرة، وعاد إلى البيت ففوجئوا به في مدخل الشارع كمن رأى جنيًا أو مصيبة، ورجع الدائخون من اللف في المشافي وأقسام الشرطة وبيوت المعارف والأصدقاء، ليجدوا أن الغائب سليم لم يُمس وليس لديه ما يشفي الغليل.

(٤) مشينا على الماء وقابلنا غريبا

انتهى سور الكورنيش عند شجرة كبيرة انحنت تشرب من النهر، بعدها لم يكن هناك حاجز بيننا وبين الماء، على ضوء النجوم قبل الفجر مشينا، على يسارنا مبان صغيرة متفرقة تبدو صامتة ومهجورة ولا يزيد أعلاها ارتفاعًا عن طابقين، نباح بعيد خافت من كلاب غير مرئية، وخشخشة أشياء صغيرة بعضها حيّ على الأرض. وتوقف بحر فجأة وجذبني إلى طرف الجرف، وبدا كما لو أنه يدعوني للقفز إلى النيل، ولكن على الضوء النجمي رأيت سلمًا حجريًا انبعث من لا شيء، سلم ضيق يمتد من سطح أرضنا العالية ويهبط نحو صفحة النهر، يمتد السلم إلى حيث لا مَرسى ولا قارب ولا كوخ ولا شيء، كأنه يدعونا إلى لقاء تحت الماء.

نزل بحر درجات السلّم بحذر ودون أن يتكلم، ونزلت وراءه، وعند آخر درجتين قبل أن يلامس الماء جلس على الدرجة الحجرية، فجلست على الدرجة التي تعلوه، أسندنا ظهرينا إلى الجدار الملاصق، وقال بحر فجأة: عند جدار وسلم كهذين قبّلت فتاة للمرة الأولى.

أنصتُّ منتظرًا أن يكمل لكنه صمت مرة أخرى.

وفي الصمت بدا كأن النجوم تعزف لحنًا يهدهدنا ويقودنا إلى النوم، وفجأة من القلب المعتم للنهر انبعثت حركة فانتبهنا، ورأينا بذهول، أو كنت أنا على الأقل مذهولًا، رجلًا يأتي من قلب النهر ماشيًا على الماء، ونهض بحر وقال: الآن. ونزل درجة إضافية حتى لامس

طرف حذائه الماء، فانحنى وخلعه، وقال دون أن ينظر اخلع حذاءك فارتجف قلبي.

اقترب الرجل وبدا يرتدي جلبابًا وقد رفع طرفه إلى فوق ركبته، وبدا أنه مثل بحر يمسك حذاء أو مركوبًا في يديه ويمشي بحذر، ولاحظت أن الماء يصل إلى ما فوق كعبي الرجل بقليل، وكأن قدمه تغطس تحت الماء بملليمترات.

وقف الرجل أمامنا وقال: السلام عليكم.

ردّدنا السلام وتحرك بحر ليفسح الطريق، فصعد الرجل ببطء وتأملنا لحظة وبدا كأنه سيطرح سؤالًا، ثم تراجع وصعد إلى الأرض التي صارت سقفنا الآن وابتعد.

ونزل بحر عن السلم ببطء، ووضع قدمه الأولى فغاصت إلى ما فوق الكعبين كما كان الرجل ذو الجلباب، ثم وضع القدم الثانية كالأولى، وتحرك خطوة وهز رأسه وابتسم، هيا بنا.

ولمست قدمي الحافية أرضًا زلقة تحت الماء بسنتيمترات، وعرفت أنه قبل الفجر تنغلق بوابات السد القريب فتشحب صفحة المياه وتنخفض، حتى اكتشف الناس أن جزءًا مرتفعًا من القاع يصير قريبًا جدًا من وجه الماء لدقائق قليلة، فصاروا يعبرون تلك الطريق المختصرة في تلك الدقائق المعدودة قبل أن تنفتح البوابة ويفيض الماء عاليًا ويبعد الأرض إلى القاع، يمشون من البر إلى البر، فيبدون للغرباء كأنبياء أو أولياء يتبخترون فوق الماء بتواضع وجلال. ولم أكن

عرفت السر حين خطوت خلف بحر في نيله الغريب، كنت أخطو بحذر وأتأمل الموجات النيلية الهادئة تحت القمر وأحاول تمييز صوتها، وأتذكر اسمه: أكان العجيج اسم هذا الصوت أم الهادّ أم ماذا؟ ماذا كانت تسميه علياء؟ أتخيّلها تقول الاسم وتقلّد الصوت أو تعزفه، كان ذلك في زمن قبل بحر، ابتدأ في يوم كنت أبيت فيه مع صاحب آخر في بيته، صحوت يومها فلم أجد صاحبي ذاك وإن لم أشعر بالصدمة المؤقتة المصاحبة للاستيقاظ في مكان غريب، نهضتُ وتحركت بألفة في المكان بحثًا عن حمّام، وكان ذلك حين أتاني صوت الغناء العذب القوي من مكان على يسار الصالة.

صوت الغناء أنثوي ناعم لكنه عريض كأنما لواحدة من العوالم في الزمن القديم، وهو خافتٌ مع ذلك أقرب لهمهمة أو رفرفة أجنحة، تحركتُ نصف صاح ونصف مسحور متّبعًا خيط الغناء، وتوقفتُ عند باب المطبخ لأتأملها.

واقفة كانت تحت الضوء الآتي من النافذة، متوسطة الطول عريضة الجسد واسعة العينين حمراء الشعر، كانت ترتدي جلبابًا رجاليًا أبيض يبدو أكبر من حجمها، تمسك ذيل الجلباب بيدها، وباليد الأخرى تحرّك بهدوء كنكة صغيرة فوق شعلة نار أصغر، ابتسمت لي كأنما لم أفاجئها: صباح الخير. أنا علياء، قهوة؟

أومأتُ برأسي ببطء، ونسيت العالم بالخارج.

وحين كنت أحاول فيما بعد أن أتذكر الأغنية التي كانت

تغنيها علياء في مطبخ ذاك الصباح، أو صباح ذلك المطبخ، كنت أفشل في التذكر، ولم تتذكر هي أيضًا، وأظنّها لم تحاول، لكني أتذكر دائمًا أولى همهماتها الغريبة، حين دندنت أو صدحت بصوت مألوف كأنه صوت الموجات النهرية الخافتة أسفل قدمينا أنا وبحر الآن، أم كان شيئًا قريبًا؟

قالت لي: اسمه الهادَ.

- الهادَ؟

- صوت البحر.

وأضافت وهي تقترب من أذني: أغمض عينيك.

لامست شفتاها طرف أذني وهمهمت، فأتى صوت تدافع الموج حتى شممت الرائحة اللاذعة لصباحات المراهقة في بحري، حين كنا نفرّ إلى الإسكندرية في قطار السادسة صباحًا، ونحاول مغازلة فتيات المدارس الفلاحات الشقراوات المتنقلات بين مراكز الدلتا، المتدافعات بين المقاعد الخشبية المزدحمة وشبابيك القطار الرخيص المتكسرة، وبعد أن تغادر آخرهن ننزل في سيدي جابر ونركب الترام إلى الرمل.

- وهو غير اللجب.

فأسألها: وما ذلك أيضًا؟

- صوت تلاطم الموج. ويأتيني - مذهولًا- صوت الموج العالي الذي كنا نبتهج بإغراقه ملابسنا، وأتراجع برأسي وأفتح عيني وأتأملها: وماذا أيضًا؟

تبتسم: كل شيء، كل الأصوات.

صوت المطر «الهمار»، صوت اللهب «الأجيج»، أصوات الرفرفة والسرسبة والحفيف، التغريد، أصوات لم أكن أعرف أن لها أسماء، وأسماء لم أكن أعرف أن لها أصواتًا، وكانت علياء تعرفها جميعًا، وتؤديها كلها، في الصباح تهمهم وفي المساء تغني وفي منتصف النهار تأخذني في رحلاتها عبر أصوات الكون. لكن صوت النهر الذي نمشي فوقه الآن لا أتذكر اسمه، وأرى بحر يصعد درجة سلم أخرى على البر الآخر، ويلتفت إليّ ويسألني أن أستعد لرؤية أخرى.

(٥) طبيبه

أول ما لاحظه أشرف أنّ لا مرايا في هذا المكان، ثمة نوافذ عريضة وزجاج معتم يتشرب الإضاءة الخافتة لكن لا مرايا، لا وجوه مألوفة في هذا المكان الغريب ولا يستطيع حتى أن يرى وجهه.

لأشرف وجه شاب رغم الشيب الواضح في رأسه، تخرّج –كزملائه في كلية الطب- في منتصف العشرينيات من العمر، اختير للخدمة الوطنية لثلاث سنوات، خرج وهو يلامس الثلاثين. حين خرج من المعسكر يوم خدمته الأخير رأى الطريق الصحراوي كأنه الطريق الموحش لحياته، كانت أطول منه طريقه المنتظرة نحو الوظيفة والدراسة للماجستير والدكتوراه وكل ما يسبب له انقباض القولون كلما فكّر فيه. التحق –ليأكل- بخدمة طبيب كان على معرفة بأحد زملائه، عيادة في مكان شعبي تنقده قروشًا قليلة كل شهر، لم يبد المستقبل مظلمًا فحسب بل بدا كأنه تحرك منذ أمد بعيد ولا سبيل إلى اللحاق به، لذا لم يفكر كثيرًا حين أتاه العرض.

في البدء قالوا له إنها عيادة خاصة، تقع في مكان هادئ وتخدم خاصة القوم، أبدى تفاؤلًا حذرًا لأنه لم يعرف لم يمكن أن يختاروا مثله لوظيفة تبدو مربحة مثل هذه.

المفاجأة الأولى أن العيادة التي أخبروه عنها لم تكن في أي شارع أو ميدان، لقد كانت داخل قصر غامض تجاوزوا بعد بواباته طريقًا طويلًا من الخضرة، المفاجأة الثانية أن العيادة أو المشفى لم تكن تحمل أي اسم، لم

يكن فيها من لافتات سوى لافتات الأقسام المختلفة، المفاجأة الثالثة، أنه رغم كثرة الرائحين والغادين بالزيّ الأبيض المميز للطواقم الطبية، لم يلمح أشرف مريضًا واحدًا، ولم ير من يدل مظهرهم على أنهم من ذوي المرضى، لا كافيتريا للزيارات ولا حتى قسم استقبال، كأنك تجاوزت هذا كله ودلفت مباشرة إلى باطن المستشفى، التي لا تضم غرفها سوى أسرّة معدودة وفارغة.

تطلع أشرف حوله وقال لنفسه ربما لم يتم افتتاح المشفى بعد، ثم عرف أن هذا الافتتاح لن يأتي ولم يأت، لا افتتاح ولا دعوات ولا زوار ولا مرضى، فهذه المشفى كلها مخصصة لرجل واحد، وهو ليس حتى رجلًا مريضًا.

كانت الصور الطبية التشريحية المعلقة على الجدران في الأقسام المختلفة كلها صور الرجل نفسه، أشعة الأسنان هذه تمثل فكّه، والكبد على اليمين في تشريح الجهاز الهضمي يعود إليه، وهذا المعهد الطبي الصغير الملحق بالمشفى، وتلك المحاضرات التي تمنح فيه والأطباء الذين يتخرجون من الكورسات المتتابعة، كل ذلك مخصص لدراسة جسد وصحة الرجل نفسه.

لا شيء عامًا هنا ولا نظرية طبية أو إحصائية يمكن تطبيقها على الآخرين أو مقارنتها بهم، ليس هذا مكانا للطب بل مكانًا لطب السيد إبراهيم العلايلي، لا يمكن نزع المضاف عن المضاف إليه.

وجد أشرف هنا أطباء صغار السن لم يدرسوا أو يعملوا في حياتهم سوى صحة وعادات العلايلي، أطباء العظام هنا هم أطباء عظام العلايلي، وأطباء القلب هم أطباء قلب العلايلي، الباطنة والجراحة والدم والشرايين، بعضهم اضطر للتدخل مرات نادرة والغالبية تدرس وتحلل وتجري منذ سنوات الفحوص الدورية دون أن تمارس مرة واحدة. ليسوا عديمي الخبرة تمامًا، بعضهم جاء بعد ممارسة قصيرة مثل أشرف، وبعضهم لم يمارس قط إلا نظريًا، وبعضهم أساتذة محترمون ماهرون أذاعوا للخارج أنهم اعتزلوا المهنة بينما قبلوا عرض العلايلي سرًا ليتفرغوا لرعايته حين يحتاج إليها. معظمهم يعمل هنا وبعضهم يقيم أيضًا وقلة منهم تسافر مع العلايلي وتتحرك معه في كل مكان. على بعد خطوات من السيارة التي تضم حراس العلايلي الشخصيين، كانت سيارة أخرى تبدو عادية من الخارج، لكنها مجهزة من الداخل بالمعدات ويجلس فيها أمهر الأطباء والمسعفين، على بعد خطوات من عميلهم الوحيد الذي لا يتحرك بدونهم، خاصة أطباء النوبات الطارئة وعلى رأسهم مختصو القلب والشرايين والمخ، كان العلايلي قد قرر ألا يموت.

مع الوقت صدّق العاملون في مشفى العلايلي أنهم لا يمكن أن يتعاملوا مع جسد غيره، كان سهلًا أن يشيعوا اعتزالهم أو عملهم في مشافٍ بعيدة، لكن المشكلة كانت مع الأصحاب والأقارب، مع الاستشارات الدارجة

والحالات الطارئة. لم تتوقف المشكلة عند الشرط الذي وضعه العلايلي، أن يطرد الطبيب الذي يضبط متعاملًا مع جسد غيره شر طردة، ومعنى «الشر» هنا ليس مجازيًا فالعلايلي يعرف كيف ينتقم وينكّل ويسجن إن أراد. لكن المشكلة الأخرى أن الأطباء أنفسهم، أشرف وغيره، تسلل داخلهم الإحساس نفسه: إنهم مملوكون لمشفى العلايلي، أو للعلايلي نفسه بلفظ أدق، لقد أدركوا أن القوة الوحيدة التي يستطيع بها الطبيب تحمّل فكرة أنه يعمل رأيه ومبضعه في حياة الناس، هو تعدد هؤلاء الناس وتنوعهم وكثرتهم. هذا التعدد الذي يمنح الطبيب شعورًا أنه إن أخطأ هنا فقد أصلح هناك، كما يمنحه ضمير جندي فصيلة الإعدام، الذي لا يعرف إن كانت الطلقة الحقيقية في سلاحه أم في سلاح زميله، وكذا لا يعرف الطبيب العادي أهو قاتل المريض أم طبيب –أو شيء- آخر.

أما هنا، حيث ليس إلا مريض واحد، وحياة واحدة، فإن الخطأ لا يمكن التنصل منه، والشعور بالقتل ليس منه مهرب. كانت تلك الأفكار تملأ رأسه وهو في الطريق إلى المشفى ومنه، ويجترها داخله بلا نهاية وهو جالس يدرس مريضًا قد لا يراه أبدًا، وكان يظن سرّه ذاك محبوسًا وراء أسوار القصر الهادئ ذي الممرات الخضراء، ويظن نفسه غريبًا بين الناس إذا تحدثوا وإذا صمتوا. غير أن ذلك كله قد تغيّر حين سمع يومًا همسًا حول زائرة غريبة، شابة تنتمي إلى المكان ولا تنتمي في

الوقت نفسه. عرف إنها ابنة العلايلي، مرّت أمامه لمحًا كطائر لا يمس الأرض ولم تمكث طويلًا، عادت من الممر نفسه وغادرت سريعًا وبدا لأشرف أن هواءً وهميًا يحرّك شعرها ليطير وراءها. وحين اقتربت من الباب نهض شاب نحيل لم يبد أنه ينتمي إلى عالمها لكنه تبعها في صمت وغادرا معًا، ونقل الهمس إليه اسم الفتى «سلام»، وقصته التي أوضحت لأشرف خطورة ما قد تحمله الجينات.

(٦) بقرة بيضاء في حجم الكف

يندهش بحر من الأطباء المؤمنين، لا يرون الفيل في الحجرة، الطب ملحد بطبعه، يقول بحر، وإلا لوجب عليه أن يفسّر كل هذه الأخطاء في الخلق، الأخطاء التي تأتي من المنبع، مع الولادة، أو أخطاء الصناعة التي لا تسمح لهذا الجسد أن يحمل صاحبه المسكين لعدة عشرات قليلة من السنين هي كل عمره على الأرض.

لو لزم على الطبيب أن يكون مؤمنًا بشيء، يقول بحر وهو يتابع لف سيجارته، لوجب عليه أن يمنح القداسة إلى نفسه، هو الذي يمضي عمره منهمكًا في إصلاح هذه الصناعة الرديئة، في منح فرص أفضل للمخلوقين، عيادات الأطباء ورش توكيل وضمانات لمنتجات الرب الذي يؤمنون به.

لو لم يكن الطب ملحدًا لما وجب عليه أن يبذل كل هذا المجهود في حرب الميكروبات والفيروسات، والخلايا التي تنقلب فجأة لتصبح عدوة نفسها، ولاكتفى ببذل نصف أو وربع هذا المجهود وترك الباقي على ربنا، لكن هذا يصلح فقط للأفلام الرديئة.

ومع ذلك فقد رأيت - يقول بحر- ربًا، بل أربابًا وآلهة هنا على الأرض. أولها كان طبيبة شابة صغيرة، لم يكن مضى شهر على وصولي لبلاد البرد، كنت جائعًا وبغير مأوى، نقّبت في القمامة يا سيف حتى وجدت شيئًا بدا لي غير فاسد، قمامتهم يا سيف أفضل من أكل نصف مطاعمنا. غير أنني لم أكن محظوظًا يومها أو ربما كان

الخطأ في جسدي المعيب هذا، أكلت نصف «دونات» وجدتها ملفوفة لا تزال في ورقتها البيضاء ولم يكن في طرفها سوى قضمتين، قضمتين صغيرتين تخيلتهما قد حصلتا بأسنان جميلة لفتاة من تلك الملائكة التي تعبر أمامي في الشوارع. أكلت وهدأت معدتي قليلًا، ثم اشتعل فجأة ألمٌ هائل في بطني كأن كلبًا عض مصاريني من الداخل، دارت الدنيا وانساب العرق مني ليجمده البرد، وأفقت على وجه تلك الإلهة الصغيرة.

كانت تطل فوقي مثل سماء، وتبتسم، وتكلمني بلغة تلك البلد فلم أسمع سوى أنغام سماوية، وكانت تضع أصابعها الحليبية على كتفي وتتكلم، وتجرب الإنجليزية مرة والفرنسية مرة، ووجدت نفسي في ثوب أبيض من أثواب المستشفيات، والطبيبة الشابة - لا تزيد عن منتصف العشرينيات- تواصل الكلام والابتسام. وفهمت بصعوبة أن تسممًا أصابني لا من قمامتهم الجميلة، بل كان تسممًا كحوليا من ذلك الرُبع الذي شربته من متشرد كان بين النوم واليقظة على ضفة النهر. كاد التسمم يودي بحياتي لولا أن جاءت الإسعاف وأخذتني إلى الطبيبة الصغيرة، غسلت معدتي وطمأنتني وابتسمت لي، وأصرت على أن أبقى حتى الصباح. وحينها جاءت ملابسي فوجدتها مغسولة ومكوية وحين غادرت كانت الطبيبة شاحبة من سهر الليل تقف على باب إحدى الغرف، ابتسمت لي مرهقة وقالت باي باي مستر «بهر»، كنت قد عدت واعيًا شبعانَ أشعر كأنني سأعيش ألف

عام، وتلك الإلهة الصغيرة اكتفت بالإيماءة ولم تقبل شكرًا، تلك الإلهة الصغيرة عالجتني من موت وأطعمتني من جوع وآمنتني من خوف، ولم تطلب مني أن أشكرها ولو طلبت أن أعبدها لجثوت راكعًا، ولم تكن هي الإلهة الوحيدة التي رأيتها هنا.

دعاني مرة إله عجوز وزوجته إلى شرب الشاي في بيت أقرب إلى الكوخ، على أطراف غابة كانا يسكنان، أم أن ذلك بيت الإجازات؟ لم أعرف، هل يستريح الرب، هل يعمل؟

كنت متجمدًا هناك ومنحاني كوبًا من الشاي وقدما لي فراشًا أرضيًا في حجرة صغيرة دافئة. لم يخشياني ولم أشكرهما وحين نمت في غرفتهما الدافئة حلمت بهما يطلان عليّ، أم أنهما أطلا فعلًا؟

في الصباح قدما لي إفطارًا أكلته، وأخبرني الإله العجوز أنه يؤمن بدين واحد له صلاة يومية واحدة: أن يساعد إنسانًا واحدًا كل يوم، ودعاني إلى الإيمان بدينه لكني كنت آثمًا بلا عودة آنذاك فأكملت إفطاري وواصلت الهروب. كانت سنوات قد مضت على لقائي إلهة المستشفى وكنت قد دخلت جنتهم وارتكبت فيها جريمتي وهربت، لكن الآلهة كانت هنا في كل مكان.

ويلتقط بحر أنفاسه في اللحظة التي وجدنا فيها أنفسنا أمام الحائط الذي سعينا إليه، لم يكن سوى جدار معبد قديم، امّحت الرسومات الملكية لكن بقايا ظلالها ما زالت تشي بطبيعة المكان. مع الفجر صعدت معه طريقًا

غير ممهد وسط خضرة شيطانية مبعثرة، ارتفعنا مع الجبل وانخفض النيل الذي عبرناه كأولياء وظل خلفنا عريضًا ساكنًا لا يتدخل، أحاطه من الجهتين شريط ضيّق من نخيل عال وأعشاب لم أعرف كنهها. وحين بدأنا نلهث ظهرت فجأة من بين ثنايا الحجر الجبلي فتحة لا تكاد تدخل رجلًا بالغًا، ومن الفتحة أشارت لنا أصابع من الداخل فانحنينا ودخلنا.

ظننت أننا داخلان مكانًا صامتًا ففوجئت بالحركة والأصوات تسري فيه، اعتادت عيناي بالتدريج الإضاءة الصباحية المتسللة، ورأيت حشدًا جالسًا معظمه نسوة وأطفال، وشممت رائحة بخور، وارتفعت الشمس بحذر يسبقها شعاعها ككشّاف ماهر، فأنار جدارًا ناصعًا في الواجهة خاليًا تقريبًا من الرسومات.

ثم اندلع الغناء فجأة.

انطلق المديح النبوي والتواشيح والأذكار، ترددت بلا صدى وبدت غريبة في الجو الفرعونيّ، وسرعان ما صمت حشد النسوة والأطفال وبقيت الأهازيج تتردد، والتعاويذ تتتابع مرتجفة، وحدّق الجميع في الجدار كأنما في شاشة سينما وحدّقت مثلهم.

هنا علاج المحرومين من الرؤى والفاشلين في الاستخارة، الجدار المخفيّ سرّ هذه البلدات المتلاصقة لا تبوح به لأحد، لا يبدو للأغراب إلا جدارًا مجرفًا منهوبًا محطمًا، أما لأهل هذه القرى، وفي دقائق بعينها بين الفجر والضحى، في صباحات بعينها مبروكة يعلن

عنها القمر، تستطيع إن كنت مؤمنًا وكنت صادقًا وكنت محبًا أن ترى من تريد. حدّق جيدًا وصلّ على الأنبياء فإذا كنت مفعمًا بإيمانك فسترى المحبين واضحين أو في غمامة شفافة، ستراهم رأي العين أو يتجسدون في المخيّلة، سيسلّمون عليك أو يرشدونك أو يطمئنونك. حدّق أولا في الجدار حتى تبيضّ عيناك وتطرفان وتدمعان، وبدأنا نسمع النهنهة من حولنا وأصوات النسوة يغمغمن بأسماء، وزحف طفل صغير تحت قدمي حيث جلسنا القرفصاء، ملّست شعره بكفّي وأدهشتني خشونته، ثم عدت أستند إلى الجدار، وأنظر، وقلت إذا كان هؤلاء يرون من فارقوا هنا، فأنا أولى منهم وأدرى برؤية الموتى، حدقت حتى احترق جفني، ورأيت.

رأيت ليلًا سرعان ما تبينت فيه كلبًا أسود يتحرك في الظلام، تبعه كلب آخر، ثم ثالث حتى صاروا خمسة كلاب، وقفوا جميعًا على ناصية شارع بدت لي مألوفة، ثم تحركوا بسرعة يقودهم الكلب الأول بانتظام كأنما فرقة عسكرية، ووصلوا إلى مدخل بناية، مدخل جعلني أنتفض في مكاني أو هكذا شعرت.

كانت تلك بنايتنا القديمة، بناية اللهو والأمان، ورأيت الكلاب الخمسة تصعد السلالم حتى الدور الرابع، حيث كنا نسكن، تتوقف أمام باب شقتنا لبرهة، قبل أن يبدأ الكلب الأول في عواء غريب، سرعان ما تبعته الكلاب الأخرى.

ثم تذكرت، رأيت وتذكرت، كنت نائمًا في الصالة،

وأيقظني صوت النداء، ورأيت أبي في جسمه الضخم الأسمر يخرج من غرفة النوم بفانلة داخلية بيضاء، يتحرك نحو الباب، ينظر من العين السحرية، يتراجع رأسه مبسملًا ومحوقلًا، يلتقط نفسًا عميقًا، ثم يفتح الباب بقوة.

فتح الباب ثم وقف أبي في مدخل شقتنا، ووقفت أمامه الكلاب الخمسة وقد صمتت. نبح قائدها نباحًا أخيرًا صامتًا، كأنما يبلغ رسالة، ثم استدار ونزل السلم وتبعه الآخرون في صمت كأنما انتهت مهمتهم.

ولم نفهم الرسالة إلا بعد أسبوع، حين ماتت أمي.

ثم انتبهت إلى هزّة خفيفة في كتفي، ورأيت بحر مبتسمًا بإشفاق: نمت؟

هذه المرة لم أحك له ما رأيت ولم يسأل، وتطلعت حولي، لم أجد النسوة ولا الأطفال ولا أحدًا، كانت الشمس تملأ المعبد الخالي الآن، وبدا في الضوء الساطع كما لو كان مقبرة عادية، والنقوش التي تخيّلتها فرعونية لم يكن معظمها سوى شخبطات وحفر صنعتها أيادي العابثين. وعند المخرج تهامس بحر مع الرجل الذي أدخلنا وبدا أنه يعطيه أو يأخذ منه شيئًا وبدأنا نزول الطريق التي صعدناها، حرّ النهار يتخلل الملابس فتنفذ فيها قطرات العرق. وحين اقتربنا من نهاية المنحدر، اتخذ بحر مسارًا مغايرًا لما جئنا منه، وفق خطته الحذرة التي تكشّف لي جنونها مع الأيام، وكنت من وقت لآخر أتطلع إليه من طرف خفيّ وقد داخلني

ذعر مفاجئ أمام حقيقة أنني مع شخص غريب عنّي تمامًا في أماكن معزولة غالبا ولا تقل عنه غرابة. ثم أقول لنفسي إنني لا أقل غرابة عن الشخص الذي كنته إلى ما قبل أيام، حين أوقفتني ليلى في ظهيرة حارة خلال إحدى زياراتي النادرة لمجلتنا، ومنعتني - بحسمها المستجدّ- من الكلام، ثم أخرجت من حقيبتها السحرية آخر شيء توقعته، بقرة بيضاء خزفية صغيرة في حجم الكف، أهدتني إياها وهي تقول: ليس لك حجة بعد الآن، ونظرت في عينيّ بقوة خلعت قلبي وابتسامة حاولت ألا أراها، ونطقت بكلمتها ذات المعنيين: سيف، استيقظ.
كان طلبها –أو أمرها- حرفيًا، وفي البدء ظننت الهدية التي أعطتنيها مجرد ساعة منبّه عادية وإن صنعوها على شكل بقرة مبتسمة خفيفة الدم، لكنها في الموعد المضبوط أصدرت خوارًا هائلًا انتزعني من نومي المظلم مفزوعًا، لأسكت الصوت الذي خيّل إليّ أنه سيشرخ زجاج النافذة. أدهشني خروج هذا الصوت الجبار من ذلك الجسم الصغير، وذكّرني بأنني تلقيت مفاجأة مشابهة قبل أيام حين أوحى لي اسم «بحر كامل» حين سمعته بشخص ضخم الهيئة أو عالي الهامة على الأقل، لأجد رجلًا إلى القِصر والنحافة أقرب، أشيب الشعر بلطف يرتدي بنطالًا من الجينز وتي شيرت أزرق يعكسان عمرًا أقل من سنّه.
أخبرتني ليلى يومها أنه ينتظرني في ردهة المكتب، وما إن رآني حتى نهض برشاقة، وبعد تعارف سريع، جذبني

بلطف من ذراعي لنغادر المكان ونكمل حديثنا في الخارج. كنت قد اعتدت المجانين المتحمسين الذين يأتون إلى مكتبنا مبشرين بمعلومات خطرة ليست إلا في خيالهم، لكنه لم يبد لي خطيرًا فخرجت معه. وفي الأسفل تطلع حوله وأخرج مفكرة صغيرة من جيبه، وقال أعتقد أننا قريبان من الممر.

عبرنا شارع ٢٦ يوليو والتوفيقية وصولًا إلى شارع رمسيس، وبدونا للحظة كأننا متجهان إلى محطة مصر، عبرنا الطريق إلى شارع الجلاء، متجاوزين الأسوار الحديدية الخضراء، مررنا بجوار مقهى أعرفه يتميز بسوء الخدمة للعابرين، وبدا كأننا سندخل بناية لها طراز تاريخي، قبل أن يتوقف بحر، ويقول مبتسمًا «استعد».

أعاد مفكرته إلى حقيبة صغيرة على كتفه، وضمّ ياقتي قميصه إلى رقبته، وعبر سريعًا وأنا من ورائه مدخل البناية العتيقة التي اتضح أن لها مبنى توءمًا، وبين المبنيين ممر طويل تبدو من نهايته بعيدًا الأسطح الصفراء لمحطة مصر. غير أن ما أذهلني كان التيار البارد الجليدي القوي الذي انبعث بين المبنيين التوءمين. أخذت أطراف ملابسنا - أنا وبحر- ترفرف حتى نظرت حولي باحثًا بلا جدوى عن مصدر الهواء. لم يكن هناك سوى الجدران شبه الرخامية الصامتة، وأعلاها فتحات صغيرة تشبه الموجودة في القلاع المملوكية. رفع بحر كاميرا صغيرة وأخذ بعض اللقطات،

وأخرج جهازًا صغيرًا ضغط على طرفه وانتظر للحظات، ثم أعاده إلى مكانه ودوّن كلمات في مفكرته، ثم ضم طرف قميصه مرة أخرى، وقال هيا بنا.

تبعته صامتًا مذهولًا وسرعان ما عدنا إلى شارع الجلاء، ما إن خرجنا من البناية التاريخية حتى اكتسينا من جديد بالطقس الملتهب لمنتصف شهر يولية.

غير أن بحر كان قد اختفى بعد رحلتنا الأولى في الممر البارد، وكدت أنساه في غمرة أشباحي التي تفاوتت وتيرتها، حتى إن أشد ما أذكره عن تلك الأيام هو دهشتي حين عرفت أن ليلى ذهبت مع فريق المجلة لتغطية حادثة «أطفال المصعد» التي أفزعت الجميع بدمويتها وسرياليتها.

ظهرت ليلى بعد أيام من الواقعة، كانت تستند إلى جدار صالة التحرير أمام النافذة المنخفضة، لكنها بدلًا من أن تنظر إلى الشارع أو طرف السماء كانت تتطلع لأسفل كأنما تتأمل حذاءيها. ولمحتني بعد برهة أتطلع إليها، فقالت بلا سلام: أجبرونا هناك على أن نخطو فوق الجثث.

فكرتُ كم تغيّرت، ثم وجدتني أنظر رغمًا عني إلى ساقيها من تحت التنورة، وتخيلتهما –الساقين- تعبران من فوقي، ثم انتبهت إلى أن هذا يجعلني جثة، ولم يبد لي ذاك سيئًا جدًا.

ثم تذكرت لحظتها فجأة أنني حلمت بها قبل ليلة، أو قبل ليال، كنا نجلس في مكان كأنه بيتنا، ونأكل

معكرونة أعدتها ليلى تشبه تلك التي كنا نشتريها في بداية تعارفنا من مطعم صغير في باب اللوق.
كان الطعام شهيّ المذاق والرائحة وكنت أعرف أننا سنتجه بعض قليل إلى غرفة النوم فاجتاحني شعور مبهج. وحين التفتت عني ليلى وقامت لتجلب كوب ماء، أحسست في فمي بين فتات الطعام بشعرة طويلة أنثوية حمراء اللون، جذبتها من فمي بسرعة قبل أن تنتبه ليلى إليّ، لكن الشعرة أخذت تطول وهي تخرج من فمي وتطول إلى ما لا نهاية حتى بدأتُ في الاختناق، وأخذت أنظر بيأس إلى حيث خرجت ليلى منتظرًا عودتها، ولم أتذكر كيف انتهى الحلم.
ولكن ليلى أعادتني الآن إلى الواقع:
- سوف تصاحبه في رحلته، هذا تكليف من المجلة.
نظرت إليها باستفهام، فقالت مبتسمة ومستنكرة:
- بحر، أنسيته؟
تطلعتُ إليها، عادت تجلس وراء مكتبها الصغير بثقة كأنها كانت هنا منذ الأزل، بدا مدهشًا كم أنها تأقلمت هنا، ثم أوقفتُ تفكيري عن ولوج تلك الطريق التي أعرف آلامها.
وسألتها وأنا أفكر في أنني لم أستطع تحديد عمر بحر بالضبط:
- رحلة إلى أين؟
أشارت بسبابتها إلى أسفل وهي تجيب: إلى هنا.. في الوطن أقصد.

لم يكن لدي الخيار، ولم أستطع الرفض لأنني منذ أمد طويل لم أقدم في المكتب شيئًا جديًا، ولولا شفقة ليلى ومساعيها لفصلت منذ زمن، ولم أعد أندهش من انقلاب الأحوال ومن قدرة ليلى على إنقاذي وقد أتيت بها إلى المجلة وإلى الصحافة برمتها، وأوقفت تفكيري مرة أخرى عند هذا الحد.

وعرفت أن بحر، مصري عاد من الغربة بعد سنوات، وأنه - هكذا قال- يكتب تقريرًا صحافيًا طويلًا - أو من أجل كتاب، ربما- عن بعض الأماكن في مصر.

أما مكتبنا، فيريدني أن أرافقه، وهذه هي الخطة:

يكتب بحر تقاريره المفصّلة عن رحلته لينشرها في بلاد غربته الأجنبية، وأكتب أنا لمجلتنا تقاريري الصحافية عنه وعن الرحلة، حركة كثيرة بالنسبة إلى شخص مثلي لم يتحرك كثيرًا ولم يهتم بشيء منذ سنوات.

وقمت بمحاولة أخيرة رغم ضعف موقفي:

- أليس من زميل غيري متشوق لرحلة كهذه؟

ردت ليلى بسرعة: كثيرون.

ثم صمتت لحظة وتابعت: بحر من اختارك لترافقه، لا المجلة.

وأردفت أمام صمتي المندهش:

- ولا أعرف السبب، يمكن أن تسأله.

حدقتُ فيها مبهوتًا، فلم أعرف الرجل من قبل، وليس اسمي بمعروف لدرجة أن يصل إلى مصري في الغربة، ولو كان ممكنًا لاسمي أن يبحر إلى الخارج لكنت أبحرتُ

أنا قبله. وبدأ داخلي، ربما لحقيقة أن الرجل يعرفني ويطلبني شخصيًا، حماس ضئيل، وخشيت أن أسأله مباشرة لِمَ اختارني خوفًا من إجابة قد تفقدني دفعة الحماس الضئيلة فأخذل ليلى ونفسي. وقلت لنفسي إنها مهمة قد تخرجني من الركود، ثم هي أيام وأسابيع وأعود إلى فراشي ويعود بحر إلى وطنه في الغربة، ومن يدري، ربما بطريقة ما يفتح لي طريقًا إلى ما وراء البحر، أو دربًا يعيدني إلى ليلى أو يعيدها إليّ. بل وبدأت أتخيل، قبل أن أعرف أي شيء، التغطية أو ربما سلسلة التحقيقات التي جاءتني بنفسها إلى حيث أكون. وبالطبع، كان كل ذلك - ككل شيء آخر في الحياة- محض كذبة، وسأعرف بالتدريج أن مسألة التقرير الصحافي مجرد غطاء لأمر آخر. أمر أكثر جنونًا بكثير، لو جاز لنا أن نقسّم العالم إلى ما هو مجنون وما هو غير ذلك، لكني لم أكن أعرف ذلك، ولم أعرف كذلك - ولا بحر نفسه- أنه لن يعود أبدًا، وأنني كذلك، بل وليلى نفسها، على نحو ما، لن نعود، تمامًا كما جرى لعلياء من قبل. لكن بحر أمامي الآن، يواصل هبوط المنحدر من الطريق الآخر، ويمسح عرقه تحت الشمس ويقول إن خطوتنا القادمة قرية الراحلين.

وظننت أنها قرية مات جميع أهلها أو تفرقوا في البلاد، لكن الحقيقة كانت –ككل شيء في هذه الرحلة– أغرب، وقبل أن أعرفها داخلتني شجاعة مفاجئة، وناديت بحر فتوقف والتفت إليّ، وسألته بصوت عال

السؤال الذي أجّله كبريائي طويلًا: لم اخترتني يا بحر؟

(٧) مطربها

ماذا لو أن رجلًا تمكن من العودة إلى بداية الزمان، وأعد قائمة شاملة تقارن بين اكتشافات الصدفة، واكتشافات القصد والبحث الدؤوب؟ ترى في أي القائمتين سيرجح اكتشاف العلوم، النظريات، الفنانين ولاعبي الكرة، الأراضي والجزر والمناجم، المشاعر والخيانات؟ أي قائمة ستربح الفضل في إنشاء الحضارة أو تعاسة البشرية؟

لم يستطع المغنّي سلام –لو جاز له أن يصف نفسه بالمغنّي- أن يحسم أفكاره تلك، ولم يتمكن حتى من أن ينسب اكتشافه إلى أي من القائمتين. لقد اكتشف صوته في سرّه أولًا وربما لذلك اعتبره سرّه، لم يكن يجرؤ على أن يغني أمام أحد وإنما لنفسه فقط غنّى، ولذا لم يعرف إن كان صوته حلوًا فعلا أم أنه يتوهم ذلك.

ولد عاديًا لكنه نشأ متلعثمًا، جالت به أمه مدارس التحدث وخبراء النطق بلا جدوى، ظل يتلعثم ويتأتئ بالحروف مثيرًا سخرية زملائه ونفاد صبر مدرسيه، حتى انزوى وتعلم التهرب من الكلام.

فقط حين يحدّث ذاته بلا صوت ينطلق لبقًا طليق اللسان الداخلي، ومرة كان يهمهم مع أغنية في الراديو، فخيّل إليه أن صوته جميل فابتسم وقال إن الجميع يتصور الأمر نفسه.

وجرؤ مرة ووقف أمام المرآة يغني كما لو كان سيرى الصوت خارجًا من بين شفتيه، واستمتع مرة أخرى

بصوته وابتسم قبل أن يتوقف مذهولًا.
ولم يكن لذهوله شأن بحلاوة صوته، بل أذهله أن كلمات الأغنية انسابت على لسانه بلا توقف ولا تلعثم ولا تأتأة، كأنه مطرب محترف أو حتى شاب عادي يدندن كالآخرين، وشعر للمرة الأولى أنه إنسان ولم يدر لماذا فكر فورًا في الحب. وصمت عن الغناء، وأغمض عينيه لحظة وعاد يحدث في المرآة مرة أخرى وفتح فمه ليتكلم، وما لبث أن صمت بعد ثوان حين عادت اللعثمة. التقط نفسًا، وعاد يغني فارتفع الصوت ساحرًا ومنسابًا كماء النهر، عاد إلى الكلام فعادت اللعثمة وخبط بيده على طرف الحوض أسفل المرآة فصرخ بآهة متلعثمة.
وفي جلسة غداء في أثناء راحة زملاء المكتب، تشجع وقرر أن يغني، بالأحرى أن يدندن بصوت عال، خرجت أول كلمتين طبيعيتين «فكروني ازاي».. وحين التفتوا اليه مندهشين، علّى صوته:
- هو انا نسييي يتت سيت سيـ..
عادت اللعثمة كلطمة غادرة، فانفجروا ضحكًا ثم خجلوا، ربت أحدهم على كتفه ثم بدّلوا موضوع الحديث، عادوا إلى مكاتبهم عند انتهاء الراحة أما هو فتقلب في فراشه طوال الليل وقد ارتفعت حرارته.
ولم يعد إلى شجاعته تلك مرة أخرى وعرف طريق السهر والسكر، ودندن مرة وحيدًا على البار محتميًا بخفوت الإضاءة وزحام الساهرين، حين سمع مرة صوتًا ساحرًا أنثويًا يقول: صوتك جميل.

التفت، كانت ساحرة، ومن الوهلة الأولى عرف أنها لن تكون له.

قالت له أكمل.

فانبعثت شجاعته من موتها، ولذهوله، عاد صوته منسابًا رائقًا متواصلًا بلا انقطاع أو لعثمة، تمامًا كتلك المرّة السحرية أمام المرآة.

(٨) لم ينظروا وراءهم

في البدء لمحنا ظلًا يبدو كشخص مختبئ يطل من وراء جدار، وحين اقتربنا أكثر وجدنا أن المختبئ لم يكن سوى قطعة قماشية، ربما كانت طرفًا من جلباب اشتبك بالحائط لسبب مجهول، وقد أخذ الهواء يحركه يمنة ويسرة كعلم صغير.

في مدخل القرية الصغيرة كانت بقايا مقهى صغير أو نصبة شاي من تلك التي تسكن الطرق: دكتان خشبيتان تحت شجرة وحبال من الليف تحيط الدكتين كأنما تخلق إحساسًا وهميًا بـ داخل وخارج.

غاصت أقدامنا في قمامة ضبابية تحركت بينها كائنات صغيرة غامضة جعلتني متوترًا، لكني اعتصمت بحذائي الثقيل، وبهدوء بحر وهو يتقدمني. أجاب سؤالي قائلًا إنه سوف يوضح سر اختياره لي –وكل شيء آخر- حين نصل محطتنا الأخيرة، ولم ألحّ عليه لأنني ذكرت توجّسي من الإجابة يوم كلفتني ليلى بالمهمة.

ومن خلف المقهى المهجور والجدار استدرنا وبدأنا نرى البيوت.

كنا قد ابتعدنا كثيرًا جدًا عن الطريق العام، ولم تفصح القرية عن أصوات حياة فكان الصمت مطبقًا لم أعتده كابن مدينة، وكانت البيوت صاعدة لأعلى كبلدات الصعيد رغم أننا في الدلتا، وربما لعلمي بأننا قريبان نسبيًا من البحر، فقد شممت رغمًا عني رائحة يود وملح، غير أن البيوت التي أخذنا نمشي بينها لم تفح

بأي روائح.
كانت الأبواب مواربة أو مفتوحة وليس وراءها في ضوء القمر سوى جدران داكنة، وعلى الأرض الترابية أغراض مهلهلة كبقايا ملابس وأوراق كراريس ونفايات، أصوات قدمي بحر تتلوها قدماي كصدى صوت، واقتربنا من بابٍ كان كأنه يدعونا فدخلنا ببطء.
البيت ليس إلا حجرتين وفي طرفهما ما يشبه حفرة مظلمة قدرنا أنها دورة المياه، وخيل إليّ أنني أسمع همسًا قريبًا فأخذت أتلفت ولم يكن ثمة شيء ولا أحد، ومن عجب أن لم يكن في البيوت حتى بقايا كرسيّ أو كوب مكسور، كأن قنبلة نووية بخّرت كل شخص وكل شيء.
وكالعادة أخذ بحر يدوّن ويسجّل ويصوّر، وكنت رغم تجولنا في البيوت الخالية ما زلت أجد من العسير تصوّر ما حدث هنا في قرية وهدة:
لم يلاحظ جيران القرية في البلدات القريبة أن جميع سكان قرية «وهدة» يبيعون كل شيء، حرفيًا، من المواشي القليلة والدواجن المعدودة إلى الملابس حتى الداخلية منها لسوق البالة والملابس المستعملة، من أرخص الأشياء كالشباشب والأحذية الرخيصة حتى أغلى ما يملكون من أجهزة تلفاز وهواتف، بعضهم حتى تخلص بخسارة مقبولة مما يملك من سيارات ربع نقل وأجرة، انتشروا في كل مكان بحذر يبيعون كل ما يملكون جاهدين ألا يلفتوا الأنظار، نفذوا المهمة بحرص

وحيطة.

حذّروا الصغار من الحكي والكبار من الثرثرة، الرجال من إفلات اللسان في جلسات الحشيش والنساء من «الرغي» في الأسواق. كانت قرية وهدة صغيرة، صغيرة جدًا أقرب في الواقع إلى عزبة، وحين عاد ابنها سالم ابن الحاج أشرف من سفرته الطويلة إلى إيطاليا، التي وصل إليها راكبًا موج البحر وقد شرب نصف ماء المتوسط المالح اللاذع المقرف، أبهر أقرانه القليلين وجيرانه بحكاياته عن بلاد لا قهر فيها ولا جوع ولا إتاوة ولا عسكري يهينك ويضربك على قفاك أو يحبسك لمزاجه. لكن أشد ما أبهرهم لم يكن كل ذلك، فقد سمعوا من قبل مثل تلك الحكايات عن «بلاد برا»، بل أبهرهم وفتح الباب لأحلامهم أن سالم نفسه قد أصبح أحد منظمي رحلات الهجرة الساحرة تلك، لقد صار للقرية أخيرًا مندوبها للخروج من قمقم الهم والجوع، مفتاحها للخروج من الفقر الأبدي، صار بإمكانهم الآن أن يوفدوا أبناءهم وأن يلحقوا بهم إن شاؤوا. وتكالب الآباء قبل الأبناء على سالم ابن أشرف يفاوضونه ويحلفونه بالقرابة والعشرة أن يعمل لهم «خَصمًا»، وبدؤوا يتنافسون، الأخوة فيما بينهم والجيران وبعضهم البعض فيمن يقترض من الآخر، ومن يسافر هذه المرة لا المرة التالية، إلى أن عاد إليهم سالم باقتراح عجيب.

قال إنه يستطيع أن يؤمن لهم تخفيضًا محترمًا، يمكّن من يشاء من السفر، شرط أن يجمعوا ٤٠٠ راغب في

السفر، ليتخذوا مركبًا واحدة، أصحابها «جديدون في الكار»، وبذا يستطيع أن يقدم لهم التخفيض لأنه حينئذٍ لن يضطر لاستئجار مركب من المهربين.

هل كان سالم يقصد ذلك المعنى المتواري من البداية، أم كان يهمه أن يجمع العدد فحسب؟

أيًا كان، فبعد مشاورات لم تطل، وبعد عيون التقت متفاهمة، وبعد استشارة أخيرة من وليّ شاب، اتخذت قرية «وهدة» قرارها: سنرحل جميعًا، القرية كلها.

الآباء والأبناء، الأجداد والجدات، الرجال والنساء والرضع، جميعهم سيرحل. في قرية وهدة الصغيرة، الصغيرة جدًا، ٤٢ بيتًا لا أكثر، يسكنها - بعد أن حسبوا الجميع جيدًا- ٤١٦ نفسًا. إذا، لن نترك البعض ويرحل آخرون، سنسافر معًا.

حين حان الموعد كان قد صاروا ٤١٩، مات ثلاثة عجائز وولد ستة أطفال، أتمّوا بيع أغراضهم حتى ناموا في الأيام الأخيرة على الأرض، اتفقوا على اللقاء في بلطيم، وصلوها راجلين وراكبين، آخر مغادر من القرية حطم اللافتة الصغيرة التي كان قد كتبها الخطاط عرفة قبل موته بشهرين، أسقط المغادر الأخير اللافتة على الأرض، ثم غطاها بالتراب كأنما يدفن سيرة القرية نفسها ويمحو ذكرها تمامًا، وداعًا يا قرية الفقر والجوع واللاذكرى.

وفي الفجر الموعود ظهرت المركب في الضباب، تحركوا بين العشش الصفيحية المختبئة في سواحل بلطيم،

خرجوا أسرًا وعائلات، أخوة وأخوات وخالات وعمات وأبناء عمومة، صعدوا ببطء المركب التي كانت من لون البحر والتي أخذت مقدمتها تنزل تحت وطأة أقدامهم لتشرب من الموج قليلًا ثم تصعد، تجمّعوا تلقائيًا العائلات بجوار العائلات والأسر بجوار الأسر على النحو نفسه الذي كانت تتوزع به البيوت في البلدة، شمالًا وجنوبًا وشرقًا وغربًا، لم يحملوا معهم أغراضًا إلا بعض الماء والطعام، بعض البنات الصغيرات فقط حملن معهن عرائسهن الخشبية الصغيرة المصنوعة من خشب الربابة وثمار الدوم وخصلات الشعر، وصعدت القرية واكتمل العدد وانفك الحبل وارتفعت المرساة ودارت الدفة، وانسابوا في الأفق المعتم ولم يفكر أحدهم مرة أخرى في «وهدة» حيث نقف أنا وبحر الآن.

(٩) فيما بينهم لم ينتبهوا لتغير الطباع

أزعجتني الحركة العصبية الدائمة للشاب النحيل الجالس بيننا، وركبته التي ظلت تضرب في أقدام الطاولة بإيقاع رتيب، وعلى الرغم من أنني - بعد ذلك بوقت قليل- توقفت عن لومه، لكني آنذاك على المقهى اكتفيت بالنظر إليه متوترًا وهو يحكي ما جرى لبنايتهم.

حين تعطل مصعد البناية فجأة، عرف السكان لأول مرة خطورة أعمال إنشاء الفندق الجديد التي بدأت إلى جوارهم، الأعمال الكهربية اللازمة لماكينات البناء العملاقة أثرت على مرافق بنايتهم العتيقة الملاصقة، دوائر الكهرباء أخذت تنقطع يومًا بعد يوم في البناية المتهالكة، حتى تعطل المصعد الخشبيّ تمامًا وعطبت مواتير الكهرباء وصار انفجار المصابيح طقسًا يوميًا، لكن ذلك لم يكن أخطر ما يشغل السكان.

توقع السكان أن يأتي من يساومهم، أو يهجم من يطردهم، بنايتهم هي الأخيرة التي لم يخرج سكانها لصالح شركة أو فندق أو بنك جديد، معظم سكانها ينتمي إلى طبقة وسطى مالت فروعها حتى لامست الأرض، ورثوا الشقق عن آباء وأجداد محترمين بعقود إيجار قديمة اعتادوا على مبالغها الزهيدة ولم يعد بوسعهم لا البيع ولا الانتقال، وحين بدأت إنشاءات الفندق الكبير قالوا جاء الفرج، سيحاولون إخراجنا بتعويضات مقبولة، أو سيطوّرون البناية نفسها كما جرى مع غيرها.

لا هذا حدث ولا ذاك، أحاطتهم معدات البناء العملاقة والجرارات والأوناش، المهندسون بقبعاتهم البيضاء مثل قادة النمل العامل بقبعاته الصفراء، تكسّر الشارع وتعطّل المرور وتلاحقت ورديات العمل نهارًا وليلًا لبناء «أكبر فندق في الشرق الأوسط»، مصاعد العمال تصعد وتنزل وتمرّ أمام النوافذ والشرفات، العمّال والمهندسون يكادون يشاركونهم الجلسة في شرفاتهم لولا أنهم لم يعودوا يفتحونها، شعروا أن الأمتار القليلة التي تفصل بنايتهم والفندق قد امّحت ليصبحوا في قلب العمل، كشافات الليل الهائلة كانت تخترق الزجاج المعتم وستائر غرف نومهم الثقيلة، ماكينات الأوناش رجت الجدران رجا، صار النوم مستحيلًا، ثم صار حتى الحديث فيما بينهم مهمة شاقة. ولم يستجب أحد لشكواهم، كانوا هم النمل الصغير هذه المرّة أمام ملياردیرات الفندق الهائل، ولاحظوا مع الوقت أنهم صاروا عصبيين، حتى خارج البناية كان صدى صوت الماكينات يدور في أذهانهم.

كثُرت مشاكلهم في أماكن عملهم ومع أقاربهم وحتى في الشوارع والمقاهي، لم يعد أحدهم يطيق كلمة ولا صوتًا ولا جدالًا، تشاجر أطفال البناية مع زملائهم في المدارس والحضانات، وزاد تعسّف المديرين منهم ولم تعد الفتيات يتحملن أحباءهن ولا الأمهات يطقن أبناءهن، وتعودوا جميعًا على الصياح والصوت العالي ليستطيعوا سماع بعضهم البعض. وفي اللحظات

الوجيزة جدًا التي كان يتوقف فيها العمل أو تتعطل الكهرباء في الفندق، كان المارة يسمعون أصواتًا عالية تأتي من شرفات البناية ونوافذها، أصوات كبار وصغار ورجال ونساء وعجائز، أصوات تبدو كشجار لكن إذا أنصت إلى كلماتها لسمعت حديثًا عاديًا هو فقط يدور بأعلى صوت ممكن. صار الجيران القليلون المتبقون في العمارة الأخرى يتجنبون أدنى تعامل مع سكان عمارة «العصبيين»، صار يمكن تمييزهم عن بعد، يمشون بخطوات سريعة متحفزة، أعين زائغة، وأصابع إذا أمعنت النظر فيها وجدتها مرتعشة.

ومع ذلك فقد كان زوارهم يجدون في شكواهم بعض المبالغة، كانوا في اللحظات الأولى يجدون الضجة مقبولة، لكن بعد قليل يبدأ الزائر في الشعور كأن شيئًا ينبعث من داخله، من أذنه الوسطى، كأن ذبذبة مدمدمة تأتي من لا مكان، تبدو منخفضة لكنها بعد دقائق تحتل كيان الشخص تدريجيًا، كأنها آلة إزالة السوس لدى طبيب الأسنان وقد أنشبت إبرتها فيك إلى الأبد.

هذا الشعور نفسه هو ما داخلنا حين أخذنا الشاب - أنا وبحر- إلى البناية، وإلى شقته في الدور الأخير. كان ذلك في اليوم السابق للمشي على الماء، دخلنا من مدخل يشي باحترام غابر وصعدنا سلالم دائرية مرتفعة الأسقف، وما إن جلسنا حتى بدأت الرجة المكتومة للبناية تحتل وعينا بالتدريج.

في البداية يخيل إليك أنه صوت آلات موسيقية كتلك

التي تستخدم في موسيقى الروك، طرقات قوية على أبواب وعيك يكاد جسدك يتحرك لها، لكنها حركة انقباضية مذعورة كأنما يدافع الجسد عن نفسه.

تهتزّ الماكينات في الموقع المحيط فتهتزّ الأرض وأساسات البناية القديمة، ويتحرك الاهتزاز صعودًا نحو الجدران والأرضيات، تهتز له الأسرّة والمقاعد والخزانات والبوتاجازات والأحواض، كل ذلك بتوتّر أدنى مما تلاحظه العين المجردة أو يحسّ به الجسد، يعبر الاهتزاز ذو التردد المنخفض جدًا عبر مسامات الجلد، ليهزّ الشرايين والأوردة ويؤرجح الأعضاء في كل الاتجاهات، ثمة بهلوان أو رامي جلّة يقبع داخلك ويدفع بالكبد والقلب والبنكرياس في اتجاهات معاكسة، ويسبب كل ذلك ضجيجًا داخليًا يحرم النوم والراحة لكل كائن حيّ، أو لكل إنسان فقد امتنعت القطط الضالة عن المبيت على سلالم البناية.

غير أن رجلًا واحدًا، بدا كأنه كان يبحث عن بناية كهذه. جاء كأحد موظفي فحص الشكاوى، وقال –مع زملائه- إنهم لا يجدون الأصوات عالية بهذا القدر، ومع ذلك – أمام غضب السكان- قالوا إنهم سيوصلون الصوت - صوت السكان لا أصوات البناية- إلى المسؤولين. وبعد أيام، عاد الرجل، لا ليحل المشكلة، بل ليسأل - أمام ذهولهم- عن شقة للإيجار في البناية.

واتخذ بالفعل شقة دفع لصاحبها –المحظوظ- أموالًا سكن بها صاحب الشقة في مكان آخر، وأقام الرجل

معهم، وكلما سألوه قال إن الشكوى تتخذ مسارها، وفي أحيان أخرى كان يطالبهم بالصبر حتى انتهاء الإنشاءات، وكانوا يغضبون عليه أحيانًا، ويعاملونه بلطف أحيانًا أخرى، فهو سبيلهم الوحيد إلى إدارة الحيّ، كما أن بعضهم، أدرك أن له قصة قد تكون أغرب منهم جميعًا، حين جلس يسردها لنا بعد أن قادنا الشاب إليه، استمعنا بذهول حتى نسينا مؤقتًا الاهتزازات التي كانت تحركنا كأننا في قطار يستعد للانطلاق بلا جدوى.

(١٠) أصوات العالم بلا استثناء أو نظارتي الحمراء ستبقى معي

كنا ننزل المنحدر الترابي خارجين من القرية الخالية وقد صارت الشمس حقيقة لا شك فيها، مشينا بعيدًا عن الطريق الرئيسية، هكذا قرر بحر في خطته التي بقي محافظًا على الحذر الكامن فيها، صعدنا أرضًا مرتفعة بها خضرة طفيفة، وفوقنا أطلت أحجار ملوّنة كانت من موقعها تشرف على القرية الهادئة بالأسفل، وعرفنا أنها المقابر.

مشينا بين الشواهد المنخفضة المتناثرة في الخلاء، وبدت لي أكثر بكثير من عدد البيوت، وبدا ذلك مفهومًا لأن البيوت تضم الأحياء الحاليين أو كانت تضمهم، أما المقابر فتحتضن عظام كل من سكن هنا منذ بُني البيت الأول، إلا أن بحر كان له رأي آخر.

تجاوزنا الشواهد ببطء ولم أستطع قراءة الأحرف المنقوشة بغير كثير عناية عليها، ومن موقفنا المرتفع بدا النيل خطًا باهت الزرقة، جلسنا نستريح ولم نجد ظلًا، فوضعنا كراساتنا فوق رؤوسنا، أتذكر تلك اللحظة، ونحن جالسان في حضرة أسلاف لا نعرفهم، على أنها اللحظة الأولى التي حكى فيها بحر شيئًا من ماضيه.

زرنا جدتي، قال بحر، أنا وأبي وأمي، أقصد أننا زرنا قبرها، أقصد أنه مدفن العائلة كلها، لم تكن قبورنا شواهد في الخلاء كقرى هذه الناحية، بل مبان مسوّرة تشبه مقابر المدن، وكان في مقبرة عائلتنا حجرتان،

واحدة ترقد فيها عظام الرجال، والأخرى لعظام النساء.
وصلنا فتذكرت صديقي ياسر الذي مات قبل سنوات، كان يلعب معنا لكننا كنا نعرف أنه كان مريضًا، فكنا –أو معظمنا- لا نحاول أن نغضبه لهذا السبب، ولم نكن ندرك بالضبط سبب مرضه، كان يجلس فجأة وسط اللعب ويمسك صدره، ويصبح صوته مثل صفارة المركب، وفجأة غاب عن اللعب وفجأة مات، كان قريبًا لعائلتنا فدفن في مدفننا.
وتركت باب حجرة النساء حيث جدتي، وذهبت أمام استغرابهم نحو حجرة الرجال، ووقفت أدعو له بخشوع طفولي، وحين عدت سألني أبي مبتسمًا لمن كنت أدعو.
فقلت: لياسر.
ابتسم أبي وقال: يمكن أن تدعو له من أي مكان.
قلت: فلماذا جئنا لجدتي إذًا؟
قال: كي تأتنس بنا فهي تسمعنا وترانا.
قلت: وياسر أيضًا.
هز أبي رأسه وربّت على رأسي، لكن سيّد، ابن أم سيد حارسة المدفن، ألقى في روعي بقنبلته: ياسر ليس هنا، لقد نظفنا المقبرة منذ ٦ شهور.
كنت أسمع للمرة الأولى حكاية «تنظيف المقبرة» هذه، وعرفت أن المقبرة حين تزدحم بالعظام كل حين، يتم جمع تلك العظام ودفنها بعيدًا في الجبل.
وأصابني الذهول، فلمَ المقبرة وبناؤها وحراستها والدفن والكفن إذا؟ ما دام مآلنا جميعا في النهاية إلى

الجبل؟! لماذا لا ندفن هناك مباشرة ما داموا لن يجدونا في المقبرة بعد أمد تحدده صدفة الزحام؟

هكذا أعجبتني، حين كبرت، فكرة حرق الجسد ونثر رماده.

من الأرض إلى الأرض نعود فلم المقبرة والشاهد والمزار الوهمي، ولِمَ نوضع مع من ربما لا نحبهم في حجرة واحدة حتى يأتي من «ينظفنا». وعرفت أن خلايا الجسد والأعضاء تتجدد كلها، وأنني الآن لست ذلك الطفل المندهش في المقبرة ولا المراهق الخجول في المدرسة ولا المغامر على حافة الموت في شبابي، وأن نظارتي الحمراء تلك التي بقيت معي منذ ٢٠ عامًا أقدم من أي من أعضاء جسدي، وهي تنتمي إليّ بأكثر مما ينتمي أنفي أو قدمي.

ونهضنا في الصمت وبدت الشواهد حولنا وبيننا كأشجار حجرية قصيرة، وتذكرت حكاية قديمة عن الموتى إذ يغادرون بعد رحيل الزوار ويجلسون مستندين إلى شواهد قبورهم ويتحدثون، وتذكرت يوم دبّت روح غريبة في علياء فجأة فبدت كأنها تتحدث بلسان حياة سابقة عاشت في جسدها، فعرفت آنذاك أنها ولدت بعيدًا جدًا.

كنا نجلس في شرفة مطعم لم يبد أنه سمع عما يجري في البلاد، هدوء وإضاءة خافتة وتكييف يفوح بأنسام كأنها نسائم حديقة، ورن هاتف علياء فرفعت كفها في حركة استئذان، وأجابت الهاتف فإذا بها تتكلم لغة

غريبة جدًا لم أسمعها من قبل، وشرقتُ من المفاجاة وخيل إليّ كأن روحًا تلبَستها ورأيتها تبتسم كزهرة وتناولني كوبًا من الماء.
وراقبتها حتى أنهت محادثتها وابتسمت مرة أخرى لعيوني المذهولة، وقالت: ولدتُ في آخر الدنيا.
في بلد آسيوية بعيدة كان أبوها يعمل، تعوّدت أن تكلم أختها بهذه اللغة في الهاتف إذا كان ثمة غرباء حولهما.
أكان الغرباء حول أختها على طرف الهاتف الآخر أم أنها اعتبرتني غريبًا؟
يا أمي عودي من الموت وتطلعي بنظرتك المندهشة إلى علياء وأعطيني شيئًا من حكمتك، من أين أتت تلك الموسيقى وسط ضجيج الجرارات وخروشة القمامة.
ولم أكن استوعبت بعد موهبة علياء المذهلة في التغريد بعدد لا نهائي من الأصوات المتنوعة، وكانت تغرد بالصوت الأصيل ولا تحاكيه، لأنها حين كانت تصدر صوت الموج - مثلًا- كانت شفتاها تبوحان بلحن بحري أصيل يبدو بعض الموج إزاءه كما لو كان هو التقليد. لم أكن قد استوعبت المفاجأة بعد، حتى اكتشفت أن قدرتها العجيبة لم تكن تتوقف عند الأصوات الأولية، صوت البحر وصوت المطر وصوت الريح، وإنما كان العجب يتخطى ذلك.
وجلسنا على كرسي حديقة مختبئ في أحد ميادين المعادي الصغيرة، وكنت أقرأ وكانت تدندن كعادتها حتى سمعت صوتًا مألوفًا لي على نحو عجيب فتطلعت

حولي، كانت تصفر صافرة غريبة سرعان ما تبينت فيها صوت مرور الهواء عبر النوافذ المفتوحة، كنت سكنتُ لفترة في برجين توءمين متقابلين على النهر وكان ذلك هو بالضبط الصوت الذي أسمعه في مساءات الشتاء، كان النهر في تلك الأوقات يتخذ ملمحًا رماديًا كأنه الأسفلت بينما يتخذ أسفلت الكورنيش وجهًا لامعًا من بقايا المطر فيبدو كأنه النهر، وكانت الغيوم بدرجة خافتة من الرمادي تقترب حتى يخيّل لنا أنها تمسّ أعلى البرج، كانت معظم نوافذ الصالة خربة من أثر دفع الريح في شقتي العالية فكان الهواء يمر عبر خصاصها محدثًا بالضبط هذا الصوت الذي تصفّره شفتا علياء الآن في تلك الحديقة المنزوية في المعادي.

في ذلك اليوم عرفت ماذا تعمل لكسب العيش، كنت - وأخجل من نفسي إذ أتذكر ذلك- أعتبرها واحدة من الفتيات اللواتي يعشن على المصروف الشخصي من الأهل، ولم يخطر لي، ربما لجنونها الحلو وخفة روحها وعدم إلقائها بالًا للغد، أن أسألها عن وظيفتها.

وحين عرفت ما تعمل لم أستطع منع نفسي من الابتسام وخيّل إلي أن الأمور استقامت كلها فجأة، كانت علياء تكسب العيش من إضافة صوتها إلى أفلام الكارتون، لم يكن ذاك الصوت الطفولي المبالغ فيه الذي تتميز به الشخصيات الكرتونية، بل أصوات المؤثرات التي كانوا يعتمدون فيها على التلاعب بأشياء غريبة، ككرمشة ورق مفضض لتقليد صوت أقدام على عشب متيبّس، أو

حك أعواد ثقاب للإيحاء ببدايات حريق، ولكن حين كانوا يعجزون عن ما هو أصعب وأخطر وأوسع خيالًا من ذلك، حين كانوا يريدون تأثير أجنحة أسراب السمّان بجوار قمم النخيل، صوت تدحرج الثمار من فوق سيارة نقل على الطريق السريع، زبد البحر بجوار أذني ناج لتوّه من الغرق، حينها كانوا يلجؤون إلى علياء.

عمل لا أستطيع تصور ما هو أجمل منه وموهبة منفردة لا تعوزها علياء كي تؤدي عملها بسهولة واستمتاع، والأغرب أنه في خضم كل تلك الأصوات لم أكن أخطئ صوت علياء «الحقيقي»، صوتها اليوميّ للحديث والجدال والحب، كان صوتًا تسمعه في رأسك مباشرة من فرط عمقه وحرارته ووضوحه، وقد سألتها فيما بعد السؤال الذي لا شك أجابته مئة ألف مرة من قبل: لماذا لا تحترفين الغناء؟

لكنها لم تكن تلقي بالًا لإضافة «مغنية أخرى»، كانت – ولا ألومها- تستمتع بتمكنها المنفرد الذي يكاد ينتمي إلى الأساطير.

وفي تعرفي المنبهر على تلك العجائب، وربما بسبب تعرفي على ذلك العالم المسحور، لم أستطع أن أحكي لعلياء عما كنت أواجه في تلك الأيام من أمر كان يضع مستقبلي كله على المحك، منعني الغرور أم منعني الخوف أو منعني الخجل، لا يهم، لقد خشيت أن أفشي سرًا كان ولا بد أن ينكشف، ولم ينكشف إلا بعد أمد

وحياة أخرى تغير فيها كل شيء، لكنه كان ما يشغل خاطري الآن ولا أستطيع التكلم عنه. وحين استدعاني –قبل يوم- رئيس التحرير رقصت في قلبي نبضتان، ها هو تعب السنوات يرى أخيرًا خط النهاية، وها هو رأسي يعبر مرفوعًا وصحيح أنه لم يخاطر لكنه كذلك لم ينحن، وعلى العتبة الهادئة ابتسمت لي السكرتيرة: تفضل.

وعبرتُ الباب وفي السجاد السميك غاص حذائي، وتحسست جيبي الخلفي أطمئن على المحفظة وبطاقة الهوية وندمت أنني لم أحضر قلمًا، وقلت لنفسي لن يمانع أن أستخدم أحد أقلامه، وكان مبتسمًا بدوره وطلب مني الجلوس.

وانتظرت أن يخرج العقد من درج ما ولكنه واصل الابتسام واكتفى بقول مبروك.

وسألني كأنما ليتأكد لمرة أخيرة إن كنت مرتبطًا بعلاقة عمل مع أي جهة أخرى، هززت رأسي بقوة قبل أن يكمل حديثه فهزّ رأسه كأنني أجبت بما توقعه، وخفت أن يصل صوت وجيب قلبي إلى أذنيه الضخمتين، وقال: سعيد بأن تشاركنا الملف القادم.

فسكتُ وهززت رأسي بلا تعليق، فتابع: أنت تعرف أن العين علينا لأننا لا نخشى في الحق لومة لائم، يحاولون الإيقاع بنا لكن ما دامت مصلحة الوطن غايتنا فثقتنا في الله أكبر.

واصلت الصمت فواصل الحديث: لكن الله يسبب

الأسباب.
وأشعل سيجارة وأكمل: قررنا أن يكون عدد المجلة القادم صرخة تخرس كل من اتهمنا بالخيانة وبالتحريض.
نظرت إليه مندهشًا، ورأيت شفتيه تنطقان صوتًا ذا رنين: سنقطع الطريق عليهم، وفي الوقت نفسه، نعطي لصاحب الحق حقه.
أنت تعرف، وتشهد، أنه رغم كل دسائسهم وتحريضهم علينا، فإننا - نشهد الله- لم نتعرض لأمر هاتفي أو غيره ولم نجرب مصادرة ولو لمرة.
ونفث دخانًا آخر: لا بد للناس أن يعرفوا بذلك، ولا بد لمن حمانا بسعة صدره أن نرد إليه الجميل.
وأخذ يفرد إصبعًا مع كل كلمة تالية: نسعده، ونحبطهم، ونواصل.
وأردف: ثلاثة عصافير بحجر واحد موفق. مجاملة بسيطة لا تساوي شيئًا أمام الحرية التي أعطيت لنا كل هذه السنوات، في الأسبوع القادم، عيد ميلاد الرئيس الذي لم يجبرنا على كلمة ولا حذف لنا حرفًا، وهم ينتظرون أن نشذَ نحن عن الانسجام الوطني في ذلك اليوم لكننا سنفاجئهم وسنكون الأشد عرفانًا.
وأخيرًا وصل إلى النقطة النهائية: سيكتب كل صحفي في المجلة كلمة إلى الرئيس في عيد ميلاده، ذلك سيكون العدد كله، كلمات تتبارى في الوطنية وفي إخراس الخصوم.

سنكون محل الدهشة والرضا والإفحام في عددنا القادم، وأنتظر منك يا سيف، من موهبتك الكبيرة، أن تكون أجمل زهرة في ملف الوفاء وتحمّل المسؤولية. بعد يومين أنتظر مشاركتك التي أثق في روعتها وفي فضلها على الملف كله.

وبعد أن نحتفل معًا الأسبوع القادم، بعد أن نستريح وأن نقطف الثمرات، ستكون الإدارة، وهذا وعد لا لبس فيه، قد انتهت من إعداد العقود جميعًا، وعلى رأسها عقدك معنا.

وتنهد ثم ابتسم: شكرًا يا سيف.

خرجت دون أن أعي خطواتي، وجدت نفسي أمام النافذة التي رأيت ليلى تقف أمامها فيما بعد، لكني لم أتطلع إلى قدميّ مثلها بل إلى شجرة حرّكت أوراقها نسمة بالأسفل، نظرت إلى غصونها المعتمة في الليل، وتساءلت لماذا يصوب أي شخص حجرًا نحو عصفور؟ هل يتبقى من العصفور شيء لو أصيب؟

وطار طائر لم أميز نوعه فوقنا أنا وبحر، وانتهت شواهد القبور أخيرًا ولم يظهر بشريّ بعد.

(١١) أخوّة الميول الجنسية

الكرامة أثقل ما في الإنسان، يقول بحر ونحن جالسان في انتظار طبيب قال إن اسمه أشرف، لكننا لم نكن جالسين في عيادة بل في كافيتريا محطة بنزين على طريق سريع في مدخل القاهرة، هكذا أصر الرجل الخائف كما قال بحر، قبل أن يتابع: وزنها، الكرامة، حوالي ٨٠ كيلوجرامًا أو أقل قليلًا.

أخذ رشفة من القهوة السريعة وواصل: عرفتُ ذلك وأنا ما زلت مراهقًا، رأيت مظاهرة في مدينتنا لا أذكر حتى موضوعها، في صفوفها الأولى رأيت «سها»، فتاة كانت تعجبني حين كنت أراها في قصر ثقافة مدينتنا ولم أجرؤ على أن أكلمها قط، والواقع أن ما أعجبني حقًا كان ساقيها اللتين كانت تكشفهما إلى ما تحت الركبة بقليل في حدث نادر في مدينتا الصغيرة. ساقا سها قادتاني إلى عالم عرفت فيه تصنيفي كأحد محبي الأقدام الأنثوية، الأجنحة الرقيقة التي ترفع تلك الأجساد الساحرة عن الأرض، لم يكن حبًا مهووسًا إلى درجة «الفيتيش» لكنه كان متسقًا وشخصيتي المترددة الحذرة ككل عشاق الأقدام، على عكس الشخصيات الراسخة المحافظة المميزة لمحبي الأرداف، والطباع المندفعة لعشاق النهود. عرفت فيما بعد أن لا الأبراج ولا الأعراق ولا الجغرافيا تمثّل التنويعات الصحيحة للبشر، بل الخريطة غير المكتوبة للميول الجنسية، وعرفت أن المازوخيين أخوة يتخبطون في الظلام، وأن الساديين

من يجدون الجنس في الأشياء الأخرى، غير أني قبل تلك المعرفة كنت لا أزال مشغولًا بساقي سها اللتين قادتاني إلى المظاهرة، لكني رغم ذلك لم أجرؤ أو لم أستطع الاقتراب من سها ولا من ساقيها، ثم هجم البوليس فجأة فهربنا جميعًا لكني كنت لا أزال غرًا عديم الخبرة، فبينما غادر الزعماء في الوقت المناسب، تأخرت حتى صادوني بسهولة، جرى أحدهم خلفي وحين ظننت أنني بجسمي النحيل سوف أسبقه أتاني آخر في مواجهتي وكور قبضته وناولني إياها في عيني بكل اندفاعه واندفاعي، في ثوان كنت على الأرض، أصرخ وأشعر أن ظلام العالم قد تركز في بؤبؤ عيني وأن وحشًا قد نهش جفني.

أفقتُ في الظلام، رائحة كريهة واختناق وكان جسدي مضغوطًا بما قدّرت أنها أجساد آخرين، لكني عجزت عن تمييز أحد. بعد دقائق طويلة، ربما ساعات، أصابني ما عرفت فيما بعد أنه أول نوبة ذعر في حياتي، وقفت كثيرًا فيما بعد على حافة الموت لكن رعب النوبات ذاك لا يقارن بالموت نفسه، الرجفة والاختناق واستحالة التنفس والشعور بالسقوط في هاوية وأنت في مكانك، تركونا هناك، لا أكل ولا شرب ولا شيء يدخل جوفنا سوى الرائحة البشعة.

وبعد وقت لا أعلمه نادوا اسمي، انتفضت بين الرعب والأمل الشاحب، على الباب جعلوني أخلع قميصي وغمّوا عينيّ به، وقيّدوا يدي خلف ظهري.

ومشيتُ أعمى بين أصوات ولكمات، وتحذيرات ساخرة تأمرني أن أنتبه إلى السور الذي أمشي فوقه أو البالوعة المفتوحة تحتي، وبعد سير وصعود ونزول لم أدخل من باب آخر بل أمرت بالجلوس مقرفصًا، دفعني أحدهم من كتفي إلى أسفل وحاولت أن أستند بظهري إلى جدار تخيلته خلفي فتلقيت ركلة أعادتني منتصبًا، وهنا سمعت أصواتًا عجيبة، أصواتًا أنثوية رفيعة تصرخ بخفوت ورعب ميّزت بينها صوت سها!

وكالمجنون حركت رقبتي ورأسي حتى انزاح جزء من الغمامة، ورأيت، رأيت ثلاث أو أربع فتيات متلاصقات من الرعب وبينهن يظهر ويختفي وجه سها، ورأيت بعض الكلاب يفتّشوهن أو يتظاهرون بذلك، وأيديهم تغوص ظاهريًا في الجيوب والحقائب وحقيقة تدخل بين الأفخاذ والصدور، وجمَدني الرعب لحظة ثم صرخت: يا ولاد الوسخة!

أو هكذا أظنني قلت، فما خرج من فمي كان أقرب إلى خوار بلا أحرف، وفي اللحظة ذاتها انهال الركل في جنبي بقوة أكبر وعادت الغمامة إلى عيني وأخذتُ إلى التحقيق.

لكن مالك والتحقيق يا سيف؟ هو تحقيق، أسئلة لا معنى لها من قلب الظلام، ولكمات تأتي من خلفك ومن كل مكان، لكن ليس هذا ما أذهلني. بل ما سيأتي.

حين أعادوني أخيرًا إلى البيت، وبعدما عرفت الحقيقة الأولى عن الخارجين من حبس السياسة: بعد أحضان

الأهل الأولى يتبخر الفخر سريعًا ولا يبقى سوى اللوم الصامت على أوقات الفزع التي تحملوها من جرّاء فعلك. وعدت بعد تردد إلى قصر الثقافة، ورأيت «سها» هناك، فابتهجت روحي، تقدمت منها مليئًا بشجاعة من خاضوا التجربة، ومددت يدي إليها فقالت: حمدًا لله على السلامة.

فقلت لها: حمدًا لله على سلامتك أنت أيضًا.

ثم ابتسمت لها: كفّارة.

فنظرت إليّ باستغراب كما قد تنظر أنت إلى مجنون وقالت: عمّ تتكلم؟

وجاء صاحبها فكررت: حمدًا لله على السلامة.

وغادرت معه.

ولم أعرف قط يا سيف أي صوت ذاك الذي سمعت في الممر الرطب ولا أي وجه رأيت، ربما أخطأتها هناك لأني رأيت وجهها بدلًا من ساقيها لكني على أي حال تعلمت في تلك «الحبسة» نفسها أن الكرامة لها وزن محدد، وهو ذاك الذي بين ٧٠ إلى ٨٠ كيلوجرامًا.

قبل أن يخرجونا من الحبس أخرجونا من باب خلفي للزنزانة إلى فناء مترب، خلعوا ملابسنا وتركونا عراة أو نصف عراة وأناموا على بطوننا، لم أجرؤ على التلفت لرؤية الآخرين، ثم جاء الضابط ووضع حذاءه فوق رقبتي ووقف بكل ثقله فوقي فانغرس وجهي في التراب الطيني، شعرت أن جبلًا أو جملًا أو شاحنة تدهسني في الأرض، وطرفت عيني الدموع وبين

الدموع رأيت حشرة صغيرة تزحف عند أنفي، وجاءت ذبابة كبيرة ووقفت فوق الحشرة وشعرت أنها تنظر إلي بعينيها الزرقاوين الكبيرتين، كنت أومن آنذاك كما أخبرتني أمي أن الذباب القريب من الأرض أرواح أسلافنا، وخيل إليّ أنها سوف تكلمني. كان ثقل الضابط فوق رقبتي يخفّ بالتدريج رغم أنه لم ينزل، وجاءني لحظتها إدراك كأنه الوحي، هذا الثقل فوق رقبتي ليس وزن الضابط تشده الجاذبية وتطحنني بينهما، هذا وزن كرامتي الغضة تجسدت في وزنه السبعيني الثمانيني، كرامتي غير المستهلكة تمامًا بعد، عليّ أن أتركها تطير الآن مع الذبابة التي أخذت في الابتعاد، تركت أنفي ينغرس في التراب ورقبتي تفقد تصلّبها وتستحيل إسفنجة مرنة، صاحبتُ الحشرة بالغة الصغر التي لا تزال تزحف تحت عينيّ، أنا وأنت في التراب معًا لكنك لا تحملين كرامةً ولا أوهامًا ولا غضبًا، تحيين وتموتين بلا فلسفة كما ينبغي لنا جميعًا أن نحيا ونموت، اسحبي كرامتي من أنفي أيتها الصديقة الصغيرة وخذيها بعيدًا، دعيني أنزفها كي أخفّ مثلك.

ومسّتني راحة غريبة وشعرت أنني الأرض نفسها وأنني ذرات التراب التي توزع فوقها ثقل الضابط فلا تتفتت ولا تشعر شيئًا، ثم ألهمتني الرائحة الكريهة في المكان شيئًا آخر: المرحاض لا يصير شرفة.

انظر إلى العالم الواسع يا سيف وتخيّل أنه بيت كبير، فيه صالون وردهة، فيه غرف نوم ومطبخ، فيه سطح

وسلالم وربما بدروم أو سندرة، وفيه أيضًا حمّامات، وفي الحمّامات مراحيض وبالوعات، وتلك البالوعات مهما حاولت تجميلها وتزيينها فلن تكون سوى بالوعات، ومجنون من يحلم بتحويل المرحاض إلى شرفة، أكثر جنونًا من يحاول.

هكذا، تحت هذا الإلهام الذي جاءني تحت حذاء الضابط، قررت إن عشتُ، إن خرجتُ من هناك، أن أغادر المرحاض، أن أتركه إلى بلاد أخرى، أوطان أخرى، وأن أكتشف تنوعها، فهذا وطن كالصالة، دافئ ويرحب بالضيوف، وذلك وطن نافذة، يصلح للإطلال على الآخرين، وذاك وطن حديقة، جنة في النهار وظلمة في الليل، وهذا وطن دهليز لا يصلح إلا للمرور بين وطنين، المهم ألا تعود إلى المرحاض إلا...

أكملت بدلًا منه: كي تشخّ؟

ابتسم بحر: لنقل «إذا اضطررت».

سألته: وما اضطرارك في عودتك هذه؟

نظر إليّ لحظة دون رد، وقبل أن يجيب أظلّنا خيال ضخم، ومد شاب له شعر أشيب يده إليه: سيد بحر؟

(١٢) شحاذون نبلاء

حين أعادوا افتتاح المنطقة تبين أنهم استطاعوا بالفعل إعادتها كما كانت في الزمن القديم وأجمل، قطعة من أوروبا، قطعة رائعة متلألئة ساهم في روعتها دخول المحلات والمتاجر الكبرى باهظة الأسعار مما أبعد تلقائيًا رواد الطبقة الوسطى الذين هيمنوا عليها في زمن انحدارها. دمعت عينا أحد الأثرياء من ممولي إعادة التأهيل، وهو يرى الحيّ العظيم يعود إلى ألقه، رغم أنه لم يشهد - بحكم عمره الخمسيني- الزمن القديم العريق للحي، وكان يعتمد على صور في خياله، ورغم أنه عاش في منطقته المحمية الخاصة وجلب إليها أجمل وأندر وأكبر زهور العالم، إلا أن فخرًا قد سكنه حين رأى عودة البهاء إلى الحيّ الأسطوري. ثم تنبه أحد المسؤولين الذين انضموا حديثًا إلى الحكومة، وكان عائدًا لتوه من برلين، بصحبة فريقه الطبي الخاص، إلى نقطة لم يفكر فيها من قبل، أدرك السرّ الذي جعل المنطقة، رغم مطابقتها لأوروبا، لم تبد أوروبية بالكامل بعد.

وفي لحظة إلهام أدرك السبب، كانت الميادين والزوايا تفتقر إلى أهم ما يميز شوارع أوروبا: فنانو الميادين، الشحاذون الرائعون، عازفو الموسيقى ومحترفو الألعاب السحرية، والمغنون والرسامون، أولئك الذين يملؤون الشوارع بهجة وفنًا ويضعون بجوارهم في أدب، أو بجوار آلاتهم الموسيقية وأدوات الرسم، قبعات أنيقة مقلوبة ليمنح الزائر المتفرج المستمتع ما يشاء، إن شاء،

بلا مضايقة ولا إكراه، بالاعتماد على كرم طبيعي يزيده العرض الفني تسامحًا وحنانًا.

وكان الشحاذون هنا - حتى التقليديون كلاعبي النفخ بالنار- قد فقدوا مهاراتهم منذ أمد، خاصة مع دخول أعداد كبيرة إلى المهنة التي لم تعد مهنة بعد أن دخلها الجميع، ضاعت المدارس القديمة لتأهيل المتسولين مع ضياع مجرد الرغبة في تزييف أو اصطناع حالة المتسول التقليدي، لم يعد المتسول يمثّل أنه يمسح زجاج سيارتك أو يريد أن يبيعك المناديل، لم يعد حتى يصطنع إصابة ولم تعد المتسولة تحمل طفلًا مريضًا أو غير ذلك، ولم يعد ثمة من يزعم أنه فقد نقوده ويريد ثمن تذكرة القطار إلى قريته، انتهت تلك المسرحيات وصار المتسول يقترب منك - أو ينتظر حتى تقترب أنت منه- وهو في ملابس وهيئة لا تختلف كثيرًا عنك، ويسألك المال بصوت عادي تمامًا كأنه يسألك عن الساعة، كان لهذا جانبه الإيجابي أيضًا فقد صار الناس يرفضون غالبًا بالتلقائية نفسها ودون شعور بالذنب.

هؤلاء كانوا أحيانًا يستطيعون –رغم جهود الشرطة في إبعادهم أو إخفائهم- إن لم يتخفّوا هم في ثياب المواطن العادي، كانوا يستطيعون التسلل إلى «أوروبا الشرق» الجديدة، لكن لم يكونوا بطبيعة الحال، هم المطلوبين، لذا فقد نبعت، من قلب الرغبة في المثالية، فكرة غير تقليدية.

صدر تكليف سرّي، بتنشيط البحث بين العاطلين من

طلبة وخريجي معاهد الموسيقى والمدارس الفنية، واجتذابهم إلى نواصي المنطقة المجدّدة، بعضهم تم اجتذابه بالتدريج وبعضهم تم إخباره بالمطلوب مباشرة.
مع كثرة أعداد هؤلاء، اضطر المسؤولون لإجراء اختبارات سرية للقدرات، لاختيار الأفضل، وتوزيعهم على أفضل الميادين والنواصي، لاستعراض فنهم ومهاراتهم، أمام السياح والعابرين والزوار، والحصول على ما يرزقون به من بقشيش، مقابل تسعيرة يومية كانوا يدفعونها كما يدفعها السيّاس وكل من يشغل أرضًيات المنطقة.
كانوا –هؤلاء الشحاذون المهرة الموهوبون أو نصف الموهوبين- يثيرون إعجاب الزوار لا بموهبتهم فحسب بل كذلك بأدبهم وما يبدو عليهم من حسن التربية، معظمهم تم اختياره من خريجي المحافظات البعيدة، تفاديًا لمقابلة معارفه حماية لماء وجهه أو منعًا للقيل والقال.
ويومًا، بينما يدفع أحدهم، عازف كمان رائع، التسعيرة اليومية، نظر موظف الحيّ في بطاقة تعريفه وطلب بطاقته الشخصية، وتطلع فيها ثم عاد يتطلع في وجهه، وقال: صورة من هذه؟
قال العازف، محاطًا برفاقه الشحاذين من حملة الآلات الموسيقية وكراسات الرسم وأزياء البانتومايم.
- صورتي.
تطلع الموظف مرة أخرى في البطاقة، وأراها لاثنين كانا

يقفان وراء عازف الكمان ينتظران دورهما، أزاح أولهما آلة الساكسفون في يده ونظر، وهز رأسه ورفع كتفيه بتعبير عدم المعرفة، الآخر أعاد كُراته الملونة إلى كيسه وتطلع في الصورة ثم في وجه عازف الكمان، وقال: بصراحة، لا تشبهك أبدًا.

بدأ الغضب يحل محل الدهشة في نفس عازف الكمان، وتطلع حوله ولكنه لم يجد من يعرفه، في واقع الأمر كان يتعامل مع «زملائه» بشيء من الحرج ولا يرغب في التعرف إليهم، لم ينفعه ذاك بالطبع يومها فقد أنكروه جميعًا، وأعاد إليه الموظف بطاقته وقال: غيّر بطاقتك. لا تعد إلى العمل قبل أن تحصل على صورة تشبهك.

(١٣) احترس زهور

لم تتوقف عجائب علياء عند أصوات الكون التي تسكن حنجرتها، جلسنا مرة نشاهد فيلمًا في السينما وكانت صالة العرض مزدحمة، بعد أن جلسنا بدقائق قليلة قالت لي: أشعر بالبرد، برد شديد.

وضمّت ذراعيها حول جانبيها بقوة أمام اندهاشي، لم أكن أشعر بأي من تلك البرودة ولا يبدو أن أحدًا في القاعة يلاحظها، لكنني وضعت يدي حول كتفيها على أي حال. وبعد دقائق من بداية الفيلم شعرت بتيار ثلجي يبدأ من منتصف ظهري، سرعان ما امتد إلى بقية جسدي، وخلال ثوان صار واضحًا أن أجهزة التكييف في القاعة تعمل بمنتهى القوة لتجابه الزحام حتى هزمته. وقلت ربما انتقل إلي الشعور بالإيحاء من جسد علياء.

لكنها برهنت على موهبتها كل يوم.

في المرة التالية تطلعت علياء من نافذة البيت إلى السماء الخريفية ثم التفتت لي بوجه مبتهج وسألتني: هل ستمطر؟

قالتها بنبرة سعادة أكثر مما كانت نبرة استفهام. وكانت تنظر إلي برجاء غريب وكأنني من يجلب المطر.

أجبت رافعًا كتفيّ: ما أدراني؟

وما إن جلسنا نأكل حتى سمعنا طرقات القطرات على زجاج النوافذ، بدت كوهم في البداية ثم استحالت رنينًا منتظمًا، وتطلعت علياء من مكانها إلى السماء وبدت

غائبة في سعادتها بينما تطلعت أنا إلى علياء غائبًا في ذهولي، وكانت تطقطق بلسانها مغردة بصوت المطر وهي تهز رأسها يمنة ويسرة على إيقاع خفي وهي تأكل. وتكرّمت في مرة تالية في الشتاء النادر ذاته فقالت إنها حين جاءت من البلد الآسيوي البعيد صعقت من ندرة المطر هنا، وصارت تترقبه وتنتبه إلى علاماته كما تنتبه إليها الكائنات في الجحور وبين أوراق الشجر، وحفظت أسماءه كلها. واشتد صوته في اللحظة نفسها فقالت هذا هو الهزيم، وضربت القطرات الأرض بقوة فقالت إنه الوَقع.

ثم قالت لي مرة: لنخرج من هنا.

كنا في مقهى أحبه، تطل نصف كراسيه وطاولاته على شارع هادئ يبدو دائمًا كما لو كان يتمتع بطقسه الخاص، البنايات العالية المحيطة وابتعاد الشارع العمومي تكفلا بمنع الشمس الحارقة وضجيج السيارات عنه، ووجود بعض المؤسسات الرسمية بالقرب منه منع عنه الفوضى والقمامة، جلسنا وكنت أشرب قهوتي وهي تشرب عصير العنب وتدندن، وكان المقهى نصف ممتلئ حين كررت بعصبية: لنخرج.

لم أعتد أن أناقشها في مثل هذه الأمور لأن مزاجها إن اعتل لا يصلح معه السؤال والجواب، دفعت الحساب وتناولت حقيبتها الصغيرة وضربت برجليها في الأرض مبتعدة، وقبل أن نغادر الشارع سمعنا ضجيجًا وأصوات تكسير. مشاجرة هائلة اندلعت فجأة في المقهى الهادئ،

مشاجرة لا تنتمي إليه قدر ما تنتمي إلى عالم البارات الرخيصة آخر الليل، ارتفع الصراخ وخرج الرواد القليلون في كل الاتجاهات، وابتعدنا أنا علياء دون أن نرى من يتشاجر في الداخل ولماذا، ولم نعد مرة أخرى إلى المكان.

وسقطت في الليل شجرة عتيقة خلف بيتي سدت الطريق وحطمت سيارتين سيئتي الحظ، ورأيتها في الصباح ووقفت أتأملها وداخلي طمأنينة غريبة بأن مثل تلك الحوادث لن تحدث معي أو لن تفاجئني على الأقل ما دامت معي علياء، وكنت أقول لها ذلك فتضحك وتقول إنني أجعل الأمر يبدو كالسحر فأقول لها وماذا يمكن أن يكون غير ذلك.

وتبدو كما لو كانت تفكر في إجابة لكن الكلمات تندفع أو تنساب من بين شفتيها بثقة كما لو كانت تعرف التفسير منذ بدء الزمن، وتقول لا شيء سوى أنها - علياء- صادف أنها لم تتغير كما تغيّر البشر بعد أن ارتكبوا جريمة الحضارة، ما زال جسدها كجسد أجداد «ما قبل التاريخ» –يا لوقاحة المصطلح، تقول- يشعر بما ينبغي أن يشعر به كل جسد: الخطر، كي يتفاداه، والسعادة، كي يتهيأ لها، فلا يفسدها.

وكأنما كي تثبت انتماءها إلى إنسان الماضي، لم تكن تقرب غالبًا سوى الثمار والخضراوات، حياة نباتية كاملة كانت تبدو سعيدة معها ومنسجمة، وقلت لها إن إنسان الكهوف والغابات لم يكن يجد غضاضة في الافتراس،

فتقول: ذاك كان الرجل، كان متوحشًا وسيظل، أما جداتي النساء فكنّ يجمعن ويلتقطن الثمار من مائدة الطبيعة الكريمة اللانهائية.

كانت تضحكني فلسفة النباتات والماضي وتشعرني بعد قليل من حديث علياء أنني أجلس معها وسط غابة استوائية قبل آلاف السنين، يكاد يتناهى إليّ رفيف الفراشات العملاقة واندفاع الماء وسط أشجار الأمازون. وكانت علياء تبدو في ملابس متهدلة دومًا من قمصان رجالية واسعة وسرعان ما تخلع بنطالها في البيت وتجلس هادئة ومغوية بشعر مبعثر وعينين خضراوين كالغابات التي تسكنها، وأكاد أسمع إيقاع الطبل من بعيد فأتموّج في الحركة حسب دقاته. وأصرخ كحيوان برّي حين أنتهي. أصرخ وأرى عينيها مفتوحتين وصوتها في مستويات لا يمكنني التقاطها.

لكنها استيقظت في منتصف ليلة، وأيقظني صوتها مرعوبًا وهي تردد:

- شيء سيحدث. شيء سيئ سيحدث.

لم أرفع رأسي كثيرًا عن الوسادة وإنما مددت يدي تحتضن وجهها: خيرًا؟ حبيبتي؟

وانتظرت أن تحكي لي الحلم، الكابوس.

لكنها لم تحكِ، «أي حلم؟» قالت مستنكرة: لم أحلم بشيء، ما شأن الأحلام بالمستقبل؟ أتؤمن بهذه التخاريف؟

قلت باسمًا: ظننتك موهوبة في النبوءات.

قالت بفخر وكأن في كلامها ذرة منطق: ليست نبوءات بل إحساس، وهو لم يكذب عليّ قط.

منذ ذلك اليوم لم تعد علياء تفارقني، حرفيًا، تتحرك معي في كل مكان، حتى لو قمت لأشرب أو توجهت إلى الحمام، تمشي في إثري مثل قطة صغيرة، وتقول ساخرة من نفسها «بامشي في رجلك»، هكذا كانت جدتي تصف لسان حال الناس الذين يقلدون القطط.

«قلّدي صوت القطة»، أطلب منها، فتعقد حاجبيها، لست أراجوزة.

أتخيلها عروسة في مسرح الأراجوز تسحر الأطفال كما سحرتني.

ألن تخبريني بالحلم؟ أسأل مراوغًا إياها بين حين وآخر، لكن إجابتها لا تجدي: لا يوجد حلم.

وتضع رأسها في حضني وترفع عينيها إليّ: احتضنّي بقوة، شيء سيئ سيحدث.

ويرتجف قلبي كمنديل على حبل وسط عاصفة.

لهذا ورغم تظاهري بالعكس فقد أخذتُ تحذيرها ذاك عن الشيء السيئ الذي سيحدث مأخذ الرعب، كان أسوأ ما فيه أنه غير محدد وأنه على غير بقية «توقعاتها» لم يكن يعني شيئًا سيحدث خلال دقائق أو ساعات، بدا كحكم مجهول ولا مهرب منه، كأن أذنًا تنصتت على القدر والتقطت كلامًا مشوشًا بنبرة غاضبة، فلا فهمت الكلام ولا استطاعت أن تستبشر به خيرًا.

هو الإحساس المبهم ذاته الذي انبعث في صدري وأنا

أطلع مع بحر ذلك الطريق الصاعد الذي أطلقوا عليه شارع سيمون، حيث ما كنا بحاجة إلى التأكد منه أولًا، هو أنهم قد منعوا الأطفال بالفعل من المشي هناك بسبب تكرار حوادث سقوط الورود عليهم، أصيب أطفال كثر ومات آخرون لم يتحملوا ضربة الوردة العملاقة التي أبهرت رائف النبوي حين رآها في زيارته الإندونيسية الأولى، حين قرر منذ الثانية الأولى أنه وجد لتوّه نوع الزينة التي سيحيط بها حديقته المعلقة في المقطم.

زهرة عملاقة هائلة يتخطى ارتفاعها الأقدام العشرة، ٣ أمتار أي نحو ضعف طول رائف نفسه، نادرة وباهظة الثمن لكن لا شيء يغلو على النبوي. منذ أحاط فيلته المذهلة المرتفعة فوق إحدى الصخور الراسخة في المقطم بمدرجات الورود والأعشاب، وهو يفكر في سور إضافي يزيد حديقته جمالًا وحماية وخصوصية من دون أن يكون ذلك الشيء حديدًا أو نحاسًا أو صخرًا، ثم وجد ضالته في الزهرة الإندونيسية، حين اقترب منها في تلك الصوبة الآسيوية كانت فتاة جميلة تشب على ساقيها وترفع ذراعها لتطاول - بلا جدوى– قمة الزهرة التي تشبه طبقًا ملونًا ارتفع في داخله سيف منتصب، أيقظت الزهرة في خيال النبوي إيحاءات جنسية ساخرة بعض الشيء، وحين اقترب منها ضربته رائحة قبيحة صدمته، وعرف أن تلك الرائحة جعلت اسمها تيتان آروم، أي الزهرة الجثة!

لم ييأس رائف، كان شكل الزهرة وحجمها الأسطوري وما عرفه عن تفتحها النادر كل عشرات من الأعوام أقوى من مشكلة الرائحة، ستكون الزهرات على أطراف السور فلن تصله رائحتها ولن تصل حتى إلى الشارع المنخفض كثيرًا، سيرى المارة في شارع سيمون الزهرة المستحيلة تطل عليهم من أعلى كأنما في فيلم خيالي.

لكن رياحًا شتوية أثبتت أنها أقوى من ساق التيتان آروم فأطاحت بواحدة منها من علوها لتكسر زجاج سيارة توقف صاحبها لدقائق في شارع سيمون، في هدوء الشتاء توقف قائد السيارة وحيدًا محدقا بذهول في زجاجه المتكسر والزهرة التي احتل نصفها مقدمة السيارة والمقعد بجوار مقعد السائق، وحين استطاع انتزاعها بمشقة هائلة أخذ يدور بالسيارة محاولًا الوصول إلى السور المرتفع بلا فائدة، كانت الطريق تدور به وتدور في ممرات ممهدة وهادئة لا تذهب به إلى أي مكان ولا يبدو منها سوى أسوار متصلة. وحين أصابه الإرهاق توقف قليلًا بعيدًا عن السور ليرى خيطين من الدم يسيلان من رسغيه حيث انغرست فيهما أشواك هائلة، وهنا فقط شعر بالرائحة القبيحة.

بعد أيام، أسندت أم شابة عربة طفلها الصغيرة وبحثت في حقيبة يدها لترد على الهاتف، تحدثت وضحكت قبل أن تسمع صوت ارتطام أفزعها، ونظرت أمامها فلم تجد طفلها، لم تجد سوى نبات هائل يشبه زهرة مقلوبة رأسًا على عقب، أو ورقًا على ساق، رأت زهرة لم تر

لضخامتها مثيلًا قط، كأنها قطعة ديكور في فيلم خيالي، تجمّع بعض المارة حول المرأة بهدوء وخوف، ووقفت هي تحدق في الزهرة بذهول وقد انبعث من بين أوراقها أنين طفولي باك.

القتيل الأول لم يكن حتى قريبًا من الفيلا، على بعد عدة شوارع حملت الريح إحدى التيتان آروم وحركتها بقوة في السماء كطائرة حربية أو مصيبة تبحث عن صديق، انتقت ضحيتها طفلًا في الخامسة كان يلهو بدراجة صغيرة بثلاث عجلات، قبل أن تلمس الزهرة القاتلة الأرض حركتها الريح في مسار مواز للأسفلت، تحركت كسيارة مندفعة ضربت الطفل وأطاحته عن الأرض لثوان، واصطدم كلاهما، الزهرة والطفل بجدار تمزقًا عليه.

بمحاذاة الجدار الذي لعب دور السندان للزهرة مشيت إلى جوار بحر، بحثنا عن آثار فلم نجد، لا كسر ولا دماء، وإنما شارع هادئ أكثر من اللازم، لا مارة تقريبًا وليس سوى سيارات تجري من وقت لآخر، لا محال ولا مقاهي ولا حافلات، وبأعلى الهضاب ارتفعت أسوار مختلطة بالشجر، وبدت الزهور غزيرة ولكن لم نر منها ما هو أكبر من اللازم، ربما أزالوها وربما كنا أمام القصر الخطأ. تكسرّت أصابع أقدامنا من الطريق الصاعدة والحصى، وكدت أسأل بحر مرة أخرى عن مصدر معلوماته، لكنه توقف عند سور ونظر بتمعن ثم أخرج كاميرته الصغيرة، وتلفتّ حوله في الشارع الخاوي والتقط صورة ثم

تحرك مجددًا، ونظرت فلم أميّز في البدء ما رآه، ثم رأيت أسفل أحجار السور كتابة ركيكة وشبه ممحوّة، كانت عبارة واحدة تقول: احترس زهور عملاقة.

رأينا اللافتة والتحذير الغريب وابتعدنا ولكن لم نحترس وسوف ندفع الثمن، أنا لم أحترس أيضًا يوم ارتفعت الهتافات وقد تنكّرت في شكل غناء شجيّ عبر الشرفة وتسلل إلينا في الصالة، وإذا بعلياء ترفع أذنيها وتموء مثل قطة، وتشدني نحو الباب فأجذبها إلى الأريكة.

تعال ننزل، ٥ دقائق. انظر، لا خطر.

ونطل من الشرفة لكن لا نرى الأرض من كثرة الناس والغناء.

وأحذّرها: ما أنا يا علياء؟ ما نحن؟ ظل على حائط يا علياء، مرآة تعكس ولا ترى، وهواء لا يُرى، نحن نسمة تعبر بأدب ولا تتدخل.

عاشقان في ركن يجلسان، يضمّان أقدامهما كيلا يعرقلا الزمن.

لكنها جذبتني، غوتني، غنّت لي نغمات الرغبة، وقلّدت - لا أعرف كيف- صوت الأمل، فأيقظت في صدري عصافير منسية، وضعت علياء أذنها على صدري واستمعت للطيور وأخبرتها شيئًا، ثم نهضت وأمسكت بيدي وخرجنا من الباب.

قالت ٥ دقائق، أرادت فسحة صغيرة في فناء العالم، صورة جماعية مع الزمن وهو يتحرك، فماذا جرى لي

أنا؟ كيف قررتُ فجأة أن نستمر هناك، بالخارج؟ عمّ كنت أبحث، أو قل عمّ كنت أعتذر؟ أسأل نفسي أحيانًا حين أنسى أنني أعرف الإجابة.

نزلنا على أي حال ولم نصعد مرة أخرى قط.

وبالأسفل كنت أنانيًا حين سألني اثنان بدا أنهما من خارج العاصمة عن بطانية وكان في يدي اثنتان، لكني أردت واحدة للأرض وأخرى للسماء، وهز الوافدان رأسيهما وواصلا جلوس القرفصاء. وعند طرف رصيف تمددنا، وكانت بجوارنا خيم صغيرة وبطاطين عليها نائمون وآخرون تمددوا في العراء، وحدقنا في السماء وبدت النجوم قريبة، وأزعجنا ضوء أحد أعمدة الطريق فقلت لها مدي يدك أطفئي الضوء كي أنام.

وبدأت علياء تدندن وقالت: هل تعرف أغنية النوم في الخارج؟

لم أسمع بها.

قرّبت شفتيها من أذني وترنمت، وحاولت أن أفهم، ورأيت المصباح يرتعش تحت ضوء النجوم وتساءلت إن كان سعيدًا من أجلنا أم أنه يحسدنا في وحدته.

وغنّت علياء وكأن غناء ذاكرتي كله اندمج في تلك اللحظة وفي ذلك اللحن، غناء أمي وغناء بائع العسل بجوار مدرستنا وغناء راديو الكوّاء حين كنا نطفئ الضوء في البيت كي ننام.

وتذكرت شيئًا فقلت لها خاب ظنك هذه المرة.

نظرت إليّ مستفهمة فذكّرتها بالليلة التي استيقظت

فيها مفزوعة متشائمة.

وبين الأهازيج الجماعية حولنا نظرت إليّ صامتة، وسألتني كأني أعرف الإجابة: أتظن ذلك؟!

(١٤) نظرية البرد

أدركتُ ذلك في أثناء عاصفة خفيفة في بلدي الأوروبي، يقول بحر ويرفع أصابع يديه ليصنع قوسين حول كلمة «بلدي»، إشارته المتحذلقة لا تتسق والمنطقة الشعبية التي مشينا فيها نبحث عن ساحة كرة قدم لا نعرف إن كانت لا تزال موجودة، لكنه لا يهتم ويواصل كأنه يقرأ من كتاب: كان المطر يتتابع في تلك الليلة بإيقاع كأنه نغمات أغنية أو مقدمة أوبرا، والناس يخوضون المساء مسرعين وقد ضموا أطراف معاطفهم اتقاء الهواء وفتحوا مظلاتهم، يتحركون في اتجاهات متعارضة بقوة كأنما الرياح تقودهم أو تدفعهم بيدها بلطف. ورغم قرقعة الرعد وطرقات المطر شعرت باطمئنان لم يداخلني منذ كنت في رحم أمي، وفكرت أن هذا الجو العاصف الجميل هو الذي بنى الحضارة هنا لا شيء آخر، هنا لا بد أن تعمل وتعمل كي يسري الدفء في جسدك، لا وقت للوقوف على النواصي ولا للتلكؤ ولا مكان للمعاكسة والتحرش بين ناصية وأخرى، لو وقفت لثوان هنا لأغرقتك السماء أو جمدك البرد.

والناس في اللباس الشتوي أجمل دائمًا وأشد أناقة، المعاطف الداكنة تتباين وبياض الثلج، فيبرز اللونان المتناقضان ويتضحان أكثر وأجمل، لا شمس قاتلة تشوه الجلد ولا حرّ يجثم على الصدور ويقتل القوة والطاقة والطموح، هنا برد محفز وماء متصل بين الأرض والسماء يخلق الخضرة الدائمة التي لا يحلم بها

أبناء الصحراء إلا في جنتهم المنتظرة، هنا الحدائق الطبيعية وماء السماء بديهيات كالهواء نفسه متوفرة طوال العام، نقطة الانطلاق هنا هي ذلك المنظر الجميل والبرد الجميل، فما بالك بنقطة النهاية.

البرد هو الحب الضروري لتدفئة الجسدين، هو العناق، القبلات هي قطع الحلوى التي تدفئ الروح، أما الحرّ والصحراء فيجعلان العناق جحيمًا والجنس مملًا والحب متهمًا ومكروهًا إلا بالكلام والغزل العذري من بعيد لبعيد، ما التحرش؟ هو كلام أو لمسات دون عناء العناق والاضطجاع، هو جنس الحرّ وبلاد الصحراء.

ولم يكن في طريقنا إلى الساحة الغامضة أي نسمة باردة فلم أعرف ما الذي ذكّر بحر بالبرد، لكن الليلة كانت باردة أيضًا حين بِتنا بالخارج علياء وأنا وسط الأضواء والضحكات، وغفونا على الأرض كأننا في طمأنينة الفراش وأيقظتنا تمرينات المتحمسين الصباحية في الفجر، ورأيت علياء تعبة وقلت تعالي أوصلك إلى صاحبتك القريبة، ووقفت علياء على الباب وقالت لي: ستعود إلى البيت؟ أذهب معك.

قلت لا سأعود إلى الميدان.

وعدت أمشي وسط فرحة الشوارع السكرانة في مطلع الصباح، وإن قلّ عدد الجموع، وبدا الميدان موحشًا بلا علياء فقلت لأعُد قليلًا إلى البيت، سأصعد وآكل وأرتاح قليلًا وأبدل ملابسي وأعود.

وفي البيت تحممت وأكلت مما وجدت، وجلست، ثم

تمددت على الأريكة، ووجدت الهاتف يفصل شحنه ومددت يدي لأوصله بالكهرباء لكن أصابعي لم تطله وتكاسلت عن النهوض، وقلت أرتاح لثوان وأنهض لأشحنه وحركت رأسي إلى وضع مريح وسرعان ما غبت عن الدنيا.

حين صحوت كان الظلام قد حلّ، وقمت مفزوعًا، أخذت الهاتف وتذكرت أنه بلا شحن على الإطلاق، أعدت وصله بالكهرباء، وانتظرت حتى فتح، ثم التقط الشبكة، وجاءتني رسالة تقول إنني فوّتُّ عددًا هائلا من الاتصالات. أرسلت رسالة إلى رقم مخصص ليعيد إليّ الأرقام التي حاولت الاتصال، ووجدت أمامي عددًا لا يمكن حصره من اتصالات جاءت من رقم علياء، نظرت إلى عشرات الاتصالات مبهوتًا.

اتصلت بها فكان هاتفها مغلقًا، ارتديت ملابسي مسرعًا وقبل أن أنزل فتحت التلفاز، وقلبت القنوات ووقفت أمام الشاشة مذهولًا، أتطلع إلى العنف والدم وإلى الناس يدهسون الناس ويطعنون الناس.

نزلت كالمجنون أحاول الاتصال بلا جدوى، وذهبت إلى بيت صاحبتها حيث أوصلتها وأخذت أطرق الباب فلم يجبني أحد.

وعرفت فيما بعد كل شيء، عرفت أنها رأت الاجتياح عبر التلفاز واتصلت بي مرعوبة وحين لم تتمكن من الوصول إليّ هرعت إلى الميدان، وحين وصلت وحدها، وحدها رغم الآلاف، جرى لها ما جرى.

غير أنني ظللت بعدها أحلم بالأمر على نحو آخر، على نحو كانت السماء فيه مضاءة بالألعاب النارية والألوان، وحيث نزل كل من لم ينزل من قبل ولم يبق أحد في البيوت، الهواء في الجوّ كان زفيرًا وتنهدات وأحلامًا، والمشي لم يكن بحركة الأقدام بل كان بقوة دفع الأجسام المتلاصقة، والبهجة كان يمكن رؤيتها بالعين وبدا أن الجميع يمكن أن يغفر للجميع، وبين ملايين البشر تحدّيث علياء: هيا غنّي شيئًا أعظم من ذلك.

لكنها كانت تبتسم بعينين مغرورقين وتقول شيئًا لم أتمكن من سماعه، وجذبتها أحتضنها بيمناي، وباليسرى كنت أشق طريقنا وسط الجموع، وكنا كلنا جسدًا واحدًا فلم نكن نشعر بتخبط الأجسام واحتكاك الملابس، وجذبت يد علياء برفق كي لا تفلت مني وشعرت في يدي بملمس غريب فنظرت خلفي، ووجدتني أمسك بيد فتاة أخرى كانت تنظر إليّ بين الدهشة والاستنكار فاعتذرت خجلانً، ونظرت وراءها ولمحت جسد علياء يبتعد ويبتعد إلى الخلف وشفتاها مفتوحتان كأنما تصرخان وحاولت الرجوع إليها ضد تيار الأجساد السعيد الهادر بلا جدوى.

الفصل الثاني: قبل الأبد بقليل

(١) أوامره

نهض مفزوعًا ولم يعد أبوه واقفًا هناك على باب الغرفة، وخرج إلى الصالة وهو يرتجف من صوت أبيه الدافئ الذي بقي يطنّ في أذنيه، إلى غرفة أمه ذهب متهيبًا ثم دفع الباب ودخل، وفاجأه الصوت المخيف للحشرجة يطغى على صوت تواشيح الفجر القادمة من مسجد سيدي الغباشي، اندفع يهزّها كالمجنون ويبكي: أمي، أمي.

ولم تمت، عادت وكأنما عشرون عامًا إضافية زادت على عمرها لكنها ظلت حية تتحرك وتتكلم، وعادت لتلقّي التعليمات من الأب الذي انقطع عن الابن بعد زيارته الوحيدة.

وانتشرت قصة التعليمات الأولى والإنقاذ الأخير بين الأقارب أولًا ثم بين الجيران، وبدؤوا يسألون بحياء ثم بإصرار عن رؤى الأم للراحل ونصائحه.

وكانت الأم تنقل نصائحه التي لا تُنافس في الحكمة والسداد إلا بعضها بعضًا، وعاد الابن يتشكك لكنه لم يعرف في الأم حكمة كتلك في الزمن الخالي، هذي حكمة أبيه وقوته وقسوته أيضًا، وزاد اختلاء الأم بنفسها لما زادت تساؤلات واستشارات الناس عن الرأي والرؤى والوحي السديد.

أبوك لم يمت، كانت الأم تقول فتنبعث القوة من صوتها بين التجاعيد والتغضنات، وتربك الشيخوخة أنوثة صوتها فيخيل إلى الابن أحيانًا أنه صوت أبيه ذاته،

ويراقبها وحيدة من بعيد تغمغم وتشوح بيديها كأنما تكلم أحدًا، فلم يكن يجرؤ على الاقتراب.

وعُرف أبوه بأنه ما زال حيًا هنا رغم موته، وصار تجمهر الأقارب والجيران بجوار البيت لأخذ النصيحة مشهدًا مألوفًا. ويومًا غفا على أريكة الصالة لدقائق فرأى أباه مرة أخرى، ولم يكلمه هذه المرة، بل كان يحمل حقيبة سفره البنّية القديمة مقطوعة اليد، ويفتح باب الشقة ليغادر، ثم وقف على الباب ونادى: يالله يا سيّدة.

ونظر الابن نحو باب الأم فشعر بحركة وأقدام آتية، واستيقظ على وقع الأقدام فنهض، وهذه المرة لم يسمع حشرجة حين دخل، فتوقف عند الباب ينظر إلى الجسد الساكن كأنه راقد منذ ألف عام، ورغم يقينه فقد مدّ يده وهزّ أمه فاهتزّ الجسد بقوة الدفع وتوقفّ، وشم رائحة الموت، وتساءل ماذا سيقول للحشد اليومي من طلاب النصيحة؟

(٢) لم يبدوا حزانى، ربما شاردين قليلًا

بدأ ذلك بعد أسبوعين من فقدان علياء، وكان أول من رأيت من الموتى هو حسن ياقوت بائع الهدايا، جالسًا وحده كعادته على مقهى توفيق يدخن النرجيلة، كنا نسمي ذلك المقهى مازحين مقهى الرجل الواحد لفرط صغره، إذ لم نفهم كيف كان بطاولتيه الوحيدتين قادرًا على البقاء ومواصلة تقديم الخدمة لزبائنه المعدودين.

وكنت من فرط ما مررت به في الأعوام السابقة قد نسيت أن حسن ياقوت قد مات، لقي حتفه في حادثة طريق قبل ثلاثة أعوام أو أربعة، انقلبت السيارة البيجو بركابها السبعة حين كان عائدًا فيها من بلدة أهله في بني سويف، حيث كانوا ينسجون له السجاجيد الصغيرة والحليّ التي يبيعها للسياح والمستشرقين. لم تكن الحادثة ولا الموت حاضرين في خاطري لحظتها، فعبرت عيناي على حسن عرضًا، ورأيته كما رأيته على المقعد ذاته مئات المرات من قبل، وواصلت طريقي، ثم تذكرت موته فجأة بعد أن مررتُ بالسيارة وسط زحام شارع معروف وبمجرد أن انحرفت يمينًا في طلعت حرب، فتوقفت فجأة بسيارتي السوزوكي موديل ٩٢ في وسط الشارع، غير مبالٍ بكلاكسات الاحتجاج وبالشتائم.

انتظرتُ حتى خيل إليّ أن قلبي قد هدأ، ثم درت بالسيارة يمينًا مرة أخرى وعبرت من محمود بسيوني إلى شارع رمسيس فمعروف مرة أخرى، ورأيته من

بعيد لا يزال جالسًا لكني حين اقتربت ببطء مرعوب وجدته رجلًا آخر فيه من هيئة ياقوت الكثير، فعاد الهواء يمر إلى رئتي وابتعدتُ بأصابع مرتعشة حول المقود.

لكن الشخص التالي كان أماني السيد، الشاعرة الرقيقة والمتواضعة، التي كان السرطان قد استقوى عليها في وحدتها وقتلها قبل شهور عديدة من رؤيتي لها تنزل سلمَ المترو المتحرك في زحام محطة رمسيس، بينما كنت أصعد أنا السلم الآخر.

في فستانها الأزرق البسيط الذي اعتدت رؤيتها فيه كانت واقفة يهبط بها السلم وسط النازلين، وبدت محتفظة بنظرتها الشاردة ذاتها التي كانت لها في الحياة، توقفتُ لا إراديًا بينما أخذت رقبتي تدور برأسي نحوها، لكن الجموع الصاعدة وقت الذروة دفعتني، فكدت أتعثر عند نهاية السلم الصاعد، ولم يتسنَ لي هذه المرة العودة للتأكد من حقيقة من أو ما أرى.

لكن هذا الخلط في الوجوه، وكنت أستخدم هذا التعبير «الخلط» كي لا يحيلني إلى ما هو أكثر رعبًا، ما لبث أن تكرر كثيرًا في تلك الآونة، ببطء ثم بوتيرة أسرع:

بعد يومين من رؤية أماني، أطلّ عم زينهم لثوان من باب بقالة الحي كأنما ما زال يحرس الشارع لحين عودة ابنه الذي ذهب إلى حمّام المسجد، ثم عاد برأسه إلى الداخل بسرعة، ولم أجرؤ على دخول المحل المعتم للتأكد. وكنت قد شاركت بنفسي مجبرًا قبل أشهر في

عزاء زينهم لأن كراسي العزاء كانت تسدّ مدخل بنايتنا، لكنهم، الموتى، كانوا في أغلب الأحوال يطلّون من بعيد، راكبين إذا كنت ماشيًا، ومشاة إذا كنت راكبًا، شاردين في أغلب الأحوال كأنما ما زالوا يفكرون في معضلات الحياة.

وكان الأمر، إذا أخذت بتفسير اختلاط الوجوه، يشبه اليوم الذي دخلت فيه جامعتي لأول مرة في ذلك الإقليم البعيد، حين رأيت دفعة واحدة آلاف الوجوه الجديدة، فكان يخيل إليّ باستمرار أن بينها وجوه أصحاب لي، قبل أن ينكشف كل وجه عن سراب ليس وراءه سوى ملامح غريبة.

هكذا كنت أرى الوجوه في الوجوه كأنما يتجسد أناس في آخرين، أصدقاء في أغراب، أموات في أحياء، فإذا تحيّنت لي الفرصة لألحق بأحدهم كان يتكشّف عن شخص آخر، ومن يدري فربما كان ذلك الشخص الآخر ميتًا بدوره في عيني شخص ثالث.

وما زاد ارتباكي أنه لم يكن من رابط بين هؤلاء الموتى الذين أخذت أشاهدهم، كنت أرى من مات قبل أسابيع أو أيام تمامًا كما أرى من مات خلال زمن طفولتي، كنت أرى زميلي في الجيش - قتلته التمرينات- وأرى جارة جدتي –قتلتها حساسية القطط- في البيت القديم، بل رأيت –في طابور ممتد أمام حديقة الحيوان- ابن ابنة خالتي الذي اختطفته الحمى في الثالثة من عمره، وكان يقف مبتهجًا ممسكًا بيد سناء معلمتي في المدرسة

الابتدائية، والتي لم أعرف عنها شيئًا مذّاك الوقت، وفكرت، ترى هل ماتت أيضًا وجلبها الموت هنا؟

سوف يبرهن لي بحر فيما بعد، حين ألتقيه بعد عامين من ذلك أو أكثر، أن عليّ أن أفترض أولًا وجود الروابط لا العكس، أن أشتبه في الحياة وألا أتسامح مع المصادفات، لكني آنذاك لم أستطع رؤية الروابط بين ما أرى، أو ربما كنت أراها فلا أميّزها، أو أميّزها على نحو غامض وأعجز عن تفسيرها.

ذهبت علياء وتركتني أرى الموتى، أولًا في صورة بسيطة - لو جاز التعبير- عابرين في طريق، أو نازلين في مصاعد أو منحشرين وسط الزحام، ثم صرت أراهم أقرب، وبمشاهد أكثر تعقيدا، يتحدثون أو يضحكون، ودائمًا مع موتى مثلهم.

(٣) جمهوره

من يملك الآخر، هو أم شيرين؟ عرف أن هذا هو اسمها، يوم طلبت منه في البار أن يواصل الغناء، منحه الانبهار جرأة مباغتة فجرّب حظه وراقب صوته مذهولًا ينساب بلا عناء، أهي الخمر. أم أنها هي؟

فشلت فرضية الخمر فيما بعد حين طلبت منه الغناء أمام أصدقائها، لم تنفعه الكأس تلو الكأس، لكنه في الليلة نفسها غنى لها في شرفة المطعم الصيفي، فعاد العندليب في حنجرته يصدح بلا حواجز.

وتأكد مرة تلو أخرى أن تلعثمه لا يختفي خارج وحدته إلا معها وحدها، في وحدتهما فقط يستطيع الغناء.

هكذا صارت هي جمهوره الوحيد، وصار طائرها الخاص، لا يغني ولا يؤلف ولا يلحن إلا لها ولا يبدع إلا ما يعجبها لأن لا جمهور سواها له، لا جمهور إلا شيرين العلايلي.

وكاد يكتفي بذلك حتى دعته يوما إلى بيتها.

وارتجف قلبه رافضًا أن يمنّي نفسه.

وسأل محاذرًا: عندك.. حفلة؟

قالت له بنظرة يراها لأول مرة: ومنذ متى تغني أنت في الحفلات؟

وغمزت له، فرقص قلبه.

اللسان بوابة العالم، والعالم امرأة لا غير، وكيف يعبر البوابة من يتعثر لسانه، سيفضحه الحراس بعد أول حرفين، قبل أن يكمل لفظ اسمه.

لكنه ذهب في الموعد ووقف مذهولًا تحت البناية الخرافية التي تمتد نحو السماء، وعند المدخل تردد، ثم تفتق ذهنه عن أن يمنح الحارس بطاقة هويته، نظر فيها الحارس سريعًا وتركه يمر: الطابق ٣٢.

وقف ضائعًا في المصعد الفخم، ظنه في البداية حين دلف صالون استقبال، لم يجلس على الأريكة الوثيرة في المصعد وقال للعامل (كان يرتدي بذلة كاملة) رقم الطابق، لكنه ضغط الرقم دون أن يبدو أنه سمعه.

تساءل بلا صوت: أي شقة في الطابق تسكن شيرين؟

وحين وصل أدرك غباءه، فقد انفتح باب المصعد عن ردهة مشجّرة وباب وحيد عال، تقدم نحو الباب، ورفع يده فانفتح الباب، واستقبلته خادمة آسيوية رائعة الجمال.

وقفت الخادمة خلف الباب وأشارت بيدها إلى الداخل، دلف وضاع في الوسع وغاص في السجاد، تقدمت الخادمة وتبعها، تصوّر نفسه داخلًا إلى صالون، لكن الخادمة أخذته إلى ممرات داخلية، أدرك أنها داخلية لأنهما كانا يتوغلان داخل البيت لكنه عرف في حياته شوارع وحارات أضيق من هذه الممرات.

دلفا أخيرًا من باب غرفة، أدهشه أولًا أنها غرفة نوم، وأدهشه مرة أخرى مساحتها المذهلة في اتساعها، وفي الفراش رأى شيرين تجلس وتبتسم وتناديه: تعال يا سلام.

وانسحبت الخادمة، ووقف مذهولًا يسأل نفسه: أتجري

الأمور هكذا؟!

وفكّر في أنه بلا خبرات إطلاقًا، وخاف أن يفشل، وفكر في أنه قد ذهب بعيدًا في أفكاره حين نادته شيرين مرة أخرى تستعجله.

تحرّك بخطوات مرتبكة نحو الفراش، وخيّل له أن شيرين نظرت إليه بشيء من الدهشة، كانت ترتدي قميصًا بحمالتين وشورتًا قصيرًا للغاية، وحين اقترب من الفراش أشارت نحو أريكة مقابلة وقالت: تفضل، اجلس.

فاتجه نحو الأريكة وجلس غارقًا في عرق الارتباك.

نظرت إليه بالعينين اللتين كانتا في تلك اللحظة أهم من كل حياته، وتلبَسته الروح التي تأخذ الرجال إلى حتفهم إذا شعروا برجولتهم محل اختبار، وكان مستعدًا ليفعل أي شيء ولم يعرف من أين يبدأ، لكنه وجدها تنام على جانبها الأيمن في مواجهته، وتبتسم وتقول: غنّ يا سلام.

اندهش لحظة وابتلع ريقه، وبدأ يغني، وتلعثم في الشطر الأول فأصابه الرعب لكن صوته استوى منضبطًا بعد ذلك، غنى بصوت متوسط لا هو بالمرتفع ولا الخفيض، وظلت تنظر إليه وتبتسم، ثم استدارت على جانبها الآخر وأعطته ظهرها، ونظر مذهولا إلى ردفيها الصغيرين الرجراجين في الشورت القصير، وسكت لوهلة لا يدري ما يفعل، لكنها قالت مرة أخرى: أكمل يا سلام.

فتابع الغناء ورآها تجذب غطاء خفيفًا حتى وسطها فاختفى الردفان وراء الغطاء وإن بقيا وعدًا كامنا، أخذ يغني وشعر بقلبه يتبخر عبر فمه، ثم سكت لحظات ليشرب ماء من زجاجة كانت أمامه، وقبل أن يتابع، سمع صوت تنفسها المنتظم.

ناداها بصوت خفيض، ثم بصوت أعلى قليلًا، لكنها غابت في النعاس، فنهض واقفًا في اللحظة ذاتها التي عادت فيها الخادمة، وأشارت إليه بالخروج.

مشى وراءها عائدًا في الممرات ذاتها، هذه المرة خيّل إليه أن أصواتًا تتناهى إلى أذنيه من الحجرات والمداخل المختلفة، أوصلته الخادمة إلى الباب وفتحته، ثم طلبت منه الانتظار لحظة.

أخرجت من جيبها مظروفًا، ومنحته إياه، أخذه دون أن يفكر أو يفهم ثم انتبه، فنظر إلى الخادمة مندهشًا، لكنها ردت نظرته بابتسامة مهنية أخرى، وأشارت نحو الباب.

لم يجرؤ على فتح المظروف إلا في البيت، أغلق بابه، فتح المظروف، وشهق أمام حجم وفئة رزمة المال المستريحة بالداخل.

ولم يستطع تمثيل دور المُهان، حين استدعته مرة أخرى ذهب، قالت: حين سمعت صوتك لأول مرة رماني في سكينة عجيبة، كأن العالم لا يهم، قلت أنت يا سلّام دوائي للأرق.

كم تقبض راتبًا في وظيفتك على أي حال؟

حاول الموازنة بين وظائفه، الصباحية في المكتب

والليلية في بيتها، والنهارية أحيانًا خارج منزلها في نزهات يصحبها فيها كأنه صديق. لم تكن لرغبته في الموازنة بين العالمين أسباب مادية، فقد كانت شيرين تمنحه أضعاف راتبه بالمكتب، بل لأنه لم يُرد أن يشعر أنها تمتلكه تمامًا، عجزه عن الغناء أمام غيرها لم يمنحه الكثير من الخيارات، فالمرء لا يكون موظفًا عند نفسه، ولا يكون أيضًا فنانًا لدى شخص وحيد. شعر بأن هذا الوضع الغريب إهانة الدنيا الأخيرة له بلا مبرر، ولكنه كان يشعر أيضًا أنه لن يجرؤ على «الاستقالة» من هذا الاقتراب من امرأة لم تكن لتأتيه حتى في أحلامه الليلية المتنوعة في كآبتها، ولم تتغير الأحلام التي تزوره، إلا أن حلمًا واحدًا جديدًا أضيف إلى القائمة.

كان يجلس في قاعة انتظار غريبة، ولكنه كان يعرف في الحلم أنه يجلس في بيت شيرين، وكان ثمة قطة سوداء ناعمة صغيرة الحجم تدور حوله فوق الأريكة التي يجلس عليها، وهو يحاول إبعاد القطة بلا جدوى، إذ لا تلبث أن تعود مجددًا لتصعد وتمشي فوق حاجز الأريكة وراء رأسه، أو تحاول أن تخمش قدميه الحافيتين، وجاءت الخادمة وأخذت القطة لكنه شعر بعد قليل بالقطة تفحّ في أذنه وتخمش رقبته من الخلف، وفي صوت الفحيح كان يسمع أغنيته المفضلة ترددها القطة بلا انقطاع.

(٤) فريق الصامتين أو ما أجمل أن تكون ترسًا في آلة

لم يكن لهم موعد محدد، يصلون في أي وقت ومعهم كرتهم، يصطفون في جانب الملعب الذي لم يكن سوى ساحة ترابية لم يحتلها البناء بعد، يتابعون المباراة الجارية بدون تهليل أو تعليق، حين تنتهي المباراة ينهضون كرجل واحد، ويدخلون «الملعب» بهدوء، ليقابلوا الفائز.

كان «النظام» وقتها يقضي بأن الفائز يحصل على أرض الملعب، يبقى فيها ليحدد من يلتقي، أو ربما لا يلتقي أحدًا وكانت تلك غالبًا عادتهم. حين ينتصرون على الفائز، ودائمًا كانوا ينتصرون، يقسمون أنفسهم إلى فرقتين صغيرتين، تلعبان فيما بينهما لساعة أو نحو ذلك، ثم تنصرفان.

لكن الغريب، وما مَيزهم عن غيرهم، أن أحدًا لم يسمع لهم أو منهم صوتًا، قط. ولا أي صوت.

لا قبل المباريات ولا بعدها، ولا - وهذا هو الأغرب- في أثنائها، يتحركون في الملعب بِكرة ودون كرة كمن يحفظ مهمته عن ظهر قلب، يذهبون في الأماكن المناسبة غيبًا، إذا احتاج أحدهم إلى تمريرة اكتفى برفع يده. وإذا سجل هدفًا يكتفي بالجري خطوتين أو ثلاثًا وهو يرفع قبضته، ويصافحه زملاؤه بلا كلام.

إذا طلبوا «فاول» وقف أحدهم فيقفون جميعًا في إثره كالتماثيل ويشيرون إلى مكان الخطأ، وإذا ادعى عليهم

أحد «خطأ» إما يستجيبون - دائمًا بلا كلام- وإما يهزون رؤوسهم ويستأنفون اللعب، فلا يجرؤ المنافسون على المعارضة.

في أحد الأيام، رفض أحد منافسيهم استئناف اللعب إلا بعد أن يحصل على فاول، توقفوا جميعًا، وأخذوا الكرة لينصرفوا، رفض المنافس انصرافهم وجذب أحد الصامتين من فانلته بقوة، التفت «المجذوب» إليه ووجه إليه أشد لكمة تلقّاها في حياته.

سقط المضروب على الأرض صارخًا وانهالت الدماء من أنفه، تجمّع فريق الفتى المضروب حول الفريق الصامت لكنهم لم يجرؤوا على أن يردوا الضرب، وقفوا أمامهم يصرخون، وزادوا الصراخ رويدًا رويدًا وانقلب إلى شتيمة بأشد الألفاظ، فلم يرد عليهم أحد، وقفوا صامتين يحدقون في شاتميهم بلا كلمة واحدة، صمت الفريق المضروب بالتدريج واتجه لاعبوه إلى زميلهم لينهضوه عن الأرض، هنا اتجه أكبر لاعبي فريق الصمت سنًا إلى اللاعب الجريح ووضع يده على كتفه ونطق كلمة واحدة: آسف.

بخلاف صوته العميق فقد بدت لكنته غريبة جدًا كأنه أجنبي بالكاد يتكلم العربية، جعلنا ذلك ننتبه للمرة الأولى إلى أن سمار ملامحهم يختلف عن سمارنا بشكل طفيف، وانتبهنا إلى العيون الواسعة والأسنان البيضاء والعضلات البارزة، التي تجمعهم جميعًا. نطق الكابتن كلمة الاعتذار الوحيدة بلكنته الغريبة وأمام أعيننا

المتسائلة التفت إلى فريقه وأشار بيديه الاثنتين إلى الأمام مثل موجة، فتحركوا جميعًا إلى خارج الملعب بهدوء وصمت، رحلوا كتلة واحدة ما لبثت أن تفرقت إلى بيوتهم المجهولة في الأحياء البعيدة.

كانت تلك آخر مرة نراهم فيها، كم لعبنا الكرة لسنوات بعدها يا سيف ونحن ننتظر ظهورهم بين لحظة وأخرى، كنا ننظم المباريات والبطولات ونتبادل الفوز والخسارة بينما يداخلنا جميعًا إحساس أن الفوز الحقيقي هو ذلك الذي لم نستطع قط أن نحققه على فريق الصامتين.

لكن القصة لم تنته هنا، حتى ونحن نقف في سوق الأدوات الكهربية والخردوات الذي يقول بحر إنه كان في الماضي ملعبهم، يضيف: بعد سنوات، في بلاد البرد، رأيت الكابتن، في مهرجان ما كان نشاطًا للاجئين من بلدان مختلفة، رأيته واقفًا يتكلم مع آخرين في الجناح الأريتري. اقتربت منه مترددًا، وألقيت عليه التحية مكتشفًا في تلك اللحظة أنني لا أعرف عنه شيئًا بما فيه اسمه نفسه، نظر إليّ بشيء من الدهشة ورد التحية وتابع كلامه مع الآخرين بذلك الصوت نفسه الذي اعتذر به في ذلك اليوم البعيد. وقفت قليلًا بالقرب منهم لا أعرف ما أقول، نظر إليّ مرة أخرى بنظرة متسائلة، فخفضت رأسي ورحلت، كنت، مثله الآن، هاربًا، من مكان لآخر، وبجوار باب بيتي كانت تقبع دائمًا حقيبة أكبر من هذه قليلًا.

ويهز بحر حقيبة أوراقه ثم يتابع: كانت تشتمل على

أهم متعلقاتي، كنت أفعل ذلك لأكون جاهزًا للرحيل فورًا في اللحظة التي تقرر فيها الحياة ذلك على أي نحو، هجوم من شرطة الهجرة، هجوم من فريق آخر من المهاجرين، طرقات صاحب البيت يريد الإيجار، دعوة من صديق لأقيم معه في مكان جديد قد لا يكون أكثر من غرفة حقيرة في حي أحقر.

تعلمت ترتيب الحقيبة بعد أيام من دهس حذاء الضابط الثقيل لي في فناء المخفر، أعادونا يومها مرة أخرى إلى حجز الظلام والحشرات، لم أسمع أو أرَ سها أو غيرها هذه المرة، ظللنا هناك لمدة ربما كانت يومًا أو يومين، أكثر أو أقل، ثم أخرجوا بعضنا وكنت ممن أخرجوهم إلى مدخل المخفر. كان ثمة مكاتب يجلس إليها ضباط شبان يضحكون وكان هناك بعض الشكاة وآخرون مقيدة أيديهم ووقف رجل يجمع طرف بنطاله من فوق الحزام ويسيل الدم من بطنه ومع ذلك كان يتحدث مع الضابط كأن ليس به شيء.

أجلسونا على الأرض بجوار رجل يعد الشاي والقهوة للضباط والعساكر، وكان كل شيء حولنا يبدو طبيعيًا جدًا، كان القيد الحديدي يؤلم الرجل المقيد إليّ فكان يتأوه بصوت يدمر الأعصاب بينما كنت أكثر نحافة من أن تؤذيني القيود. بالقرب مني كانت امرأة ترتدي عباءة سوداء وتحمل حقيبة بلاستيكية بصحبة فتاة تبدو في الثانية عشرة وكانتا تتكلمان ومن حين لآخر تنظران نحونا ثم تعودان لتتابعا الحديث. وظننت في البداية

أنهما تتحدثان عنا، لكني بعد قليل أدركت الحقيقة، كانتا تنظران إلينا كما ينظر المرء حين تقع عيناه على كرسي أو خزانة أو أي شيء طبيعي في مجال بصره، كنا لا شيء أو قل كنا جزءًا من المشهد الطبيعي هناك وسنظل كذلك حتى لو نزفنا دماءنا كلها على نحو الرجل الذي يجمع طرف بنطاله، وهنا، في تلك اللحظة، رأيت أمي وأبي.

كان أبي يتحدث مع عسكري عند الباب وعلى ملامحه مزيج لم أره من قبل فيه ولا في أي إنسان، خليط عجيب من التعب والغضب والقلق والتذلل، وتمنيت لو تصاغرت حتى أختفي في فتحة من الفتحات التي صنعها النمل في الجدران، ثم رأيت أمي تنحني فجأة وتقبل يد العسكري.

من موقعي ومن موقعها لم يكن يصلني الصوت، كنت أرى المشهد صامتًا: جسد أمي الذي لم أره خارج البيت إلا نادرًا، ينحني في مخفر الرائحة الكريهة ليقبل يد عسكري لا يملك لها ولا لي شيئًا، أمي تذل نفسها دون أن تعرف أنها تفعل ذلك بلا مقابل، ورأيت أبي يتراجع وينظر إليها وكان يعطيني ظهره لكني تخيلتُ نظرته المذهولة. وأدركت ساعتها يا سيف: لو تمردت على الحياة، لو أردت صناعة ما تسميه قدرك «يا للتبجح»، فقد تذل الحياة أمّك.. حرفيًا.

لقد أخرجتني الحياة من المخفر يومها دون أن يكون لذلك علاقة بقبلة أمي المذلة، تركونا في بهو المخفر إلى

ما بعد العصر، ثم فكوا القيود وجعلونا نوقع أوراقًا وخرجنا، وقال لي الضابط مبتسمًا وأنا أوقع الأوراق التي لم أرها إننا سنلتقي مرة أخرى قريبًا.

ومنذ ذلك الوعد باللقاء تعودت ترتيب تلك الحقيبة الصغيرة من خلف ظهر أمي، كنت أترك الحقيبة تحت الفراش حين كنت في بيت أهلي ثم بجوار الباب حين انتقلت إلى بيوت أخرى، كنت لتعرف بيتي أو للدقة البيت الذي أقيم فيه حين تجد حقيبة صغيرة جاهزة خلف الباب.

ولم تكن تضم ثيابًا قليلة فقط، بل حتى الكتب في الحقيبة كانت صغيرة الحجم، معظمها كتب قصص مجمعة ومقالات وملخصات وموجزات، لقد بدأ معي آنذاك شعور عدم القدرة على قراءة الكتب الضخمة والروايات الطويلة، كان شعور قويّ يلازمني دائمًا أن أحدًا ما سيقتحم البيت قبل أن أصل إلى ربع الكتاب وربما قبل أن أنهي المقدمة، ولازمني ذلك وامتد إلى بقية نواحي حياتي فكنت أفضل أعمال نصف الوقت والعمل بالقطعة وأرفض أي التزام، تمحورت حياتي حول صيغة واحدة لا يمكنني بدونها أن أتنفس: أن أستطيع المغادرة في أي وقت، دون أن أشعر بأنني تركت شيئًا ورائي، وظيفة، ملكًا، شخصًا، أو حتى صفحات كتاب.

لهذا لم يكن ممكنًا أن أتعلم الطبخ مثلًا، لا وقت لديّ مع أن لدي كل الوقت. ثمة ساعة آخرى تدقّ داخلي

تحذرني من الارتباط بأي شيء يدوم، لن آكل الطبق الرئيسي بل سأكتفي دائمًا بالمقبلات، أرى في ذلك حياتي نفسها التي تكونت من العديد من الأطباق الجانبية بلا طبق رئيسي، بعض المال وبعض الحب وبعض النجاح المهني، ولكني لم أعرَف قط بهذا أو ذلك أو ذاك.

ومع ذلك فلم أعرف السعادة في العمل إلا في ذلك المطبخ البحري في الشمال، يقولون إن أعمال المطبخ هي الأكثر شقاءً لكني كنت سعيدًا هناك، كنت أقف لساعات لا أفعل شيئًا سوى غسيل الأطباق، أغسل وأغسل وأغسل، أطباق لا نهاية لها وكأنهم دعوا العالم كله إلى الغداء، لا يطلب مني أحد شيئًا سوى أن أواصل ما أفعل، لا ينتظرون مني أن أبدع أو أبتكر أو أقترح، لا شيء يبقى منّي أو عليّ ولا التزام. بعد نهاية ساعات العمل بخمس ثوان أكون في الشارع حرًا إلى أن يحين اليوم التالي، كنت ترسًا في آلة فيا لسعادتي آنذاك، يا لحظ التروس ليست مسؤولة عن شيء في الماضي ولا تختار شيئًا في المستقبل، لا ذنب ولا ضمير ولا مسؤولية.

المسؤولية شعور غريب يا سيف، دعني أخبرك كيف بدأت أدرك على نحو غامض في البداية الخوارزميات الغريبة التي تحكم العالم، بعد الإفراج عني بفترة قرأت في مقال طبيّ أن عليك أن تواجه مخاوفك، وقررت العودة إلى مخفر الشرطة، هناك حيث عانيت نوبة

الرعب الأولى. منذ يوم الإفراج عني كان مجرد المرور في شارع المخفر يفرز العرق من جبيني ورقبتي ويدفع ضربات قلبي إلى الجنون، ويعيد إليّ صورة أمي المنحنية هناك تقبّل يد العسكري التافه، وأبي ينظر إليها تلك النظرة القاتلة القتيلة. قررت العودة إلى هناك، وأن أزعم أن بعض أوراقي ضاعت وأنني أريد تحرير محضر بضياعها واستخراج غيرها، اقتربت من البوابة كمن يقترب من الهاوية، كان زحام مواطنين وباعة يحيط بها، وعلى الرصيف رجال على طاولات صغيرة يبيعون بعض الطوابع الرسمية، وكانت الشمس قوية والرائحة نفاذة وتعجبت أن تلك الجدران تخفي كل هذا الرعب البارد الذي مررت به. اقتربت وعند البوابة ناداني حارس فكاد قلبي يقفز من أذني، وسألني عما أريد فقلت تحرير محضر فقد لأوراق رسمية، فمدّ يده في جيبي فتشه بمزيج من الوقاحة واللامبالاة، ثم أشار بيده أن أمر.

وقفت وسط زحام في مدخل المخفر، ومع مرور الدقائق كان قلبي يهدأ، ورأيت الزاوية التي كنا نجلس فيها حين رأيت أبي وأمي لكنها كانت خالية، حررت المحضر بيد أمين شرطة شاب، وحين انتهيت من إتمام المحضر، وضع قلمي بجواره، فظللت واقفًا، سألني عما أنتظر؟

فقلت إن قلمي بحوزته.

قال مستنكرًا: هذا قلمي.

وجدت نفسي أبتسم: حسنًا هو لك.
زعق بي: أتتصدق عليّ؟ هو قلمي.
وظل ينظر إليّ نظرته المنكرة، فواصلت الابتسام وغادرت القسم بهدوء وبطء وثقة كمن يأتي هنا كل يوم، وعندما تجاوزت البوابة وضعت يدي في جيبي فوجدت قلمي هناك وأدركت أنني ظلمت أمين الشرطة، فأخذت أضحك، وخطر لي أن أتصل بأبي، لأطمئن عليه وأحكي له الموقف، اتصلت بالبيت من عند بقال مواجه للقسم، واتصلت مرة ومرتين ولم يرد أحد، وساورني قلق فعاودت المحاولة حتى أجابت أختي وجاءني صوتها بين الصراخ والبكاء:
- بابا مات يا بحر!
كانت تلك يا سيف بداية لم أميّزها في وقتها لكنها أكملت لي فيما بعد جدولي الناقص، أما آنذاك فاكتفيت بالإحساس بأن ثمة شيئًا غريبًا لم أحدده وراء موت أبي في اليوم نفسه الذي محوت فيه الذكرى الحزينة التي احتوت أبي، كأنه عقاب أو ثمن لمواجهتي خوفي، أو كأنني إذا استطعت تحقيق شيء هنا فكان لا بد أن أفقد مثله هناك، أو أنه ذلك الشيء الغامض وقد نقص هناك فقط لأنه اكتمل هنا.
هذه قوانين تسري خلف الأحداث دون أن نلاحظها، لا تبرز من تحت التراب لتعرقلنا إلا إن رفضنا دورنا كتروس في آلات، وقررنا السباحة عكسيًا، أو مواجهة خوفنا كما فعلت ذلك اليوم. غير أن شيئًا من قوانين

التمام والنقصان تلك وصل إلينا مشوها كصورة في ماء، وصل إلينا محرفًا كما يحدث للأديان، وصل على شكل الهرطقة التي تزعم أن لكل منا «٢٤ قيراط» لا تزيد ولا تنقص، تتوزع هنا بين الصحة والمال وهناك بين الذكاء والنسل وهنا بين الجمال والحظ، إلى آخر ما يأمله المرء من نصيب في الحياة. ولا يلزم الأمر خبرة طويلة أو حياة ممتدة ليعرف أن لا شيء أكثر تضليلًا من تلك المفاهيم، وقد رأيتُ نساء جمعن بين الجمال والذكاء والذرية والسعادة، ورأيت قبيحات عليلات فقيرات يستجدين اللقمة ويطفن بالأضرحة أملًا في الإنجاب، رأيت مشوّهين مقطوعي الأطراف يأكلون من القمامة وعرفت قتلة سفاحين ماتوا في فراشهم مبتسمين لمعرفتهم أن لا شيء هناك، لا عقاب ولا ثواب وأن لو كان حقًا ثمة يد كونية تحكم كل شيء فهي قبضة تغرف عشوائيًا من رمل ينثره الهواء كيفما اتفق، وما الحركة التي نظنها إرادتنا سوى قوة دفع الهواء لنا نحن ذرات الرمل في اتجاهات متباينة.

سيقول لك من لا يدرك ذلك أن تبقى بمكانك وتعاند وتجرب، سينصحونك بالاستقرار والبناء والتراكم، وأقول لك إن تلك كلها قيود تمسك بك حتى يجدك القدر —وذلك تعبير مجازي من فضلك- حين يريدك، حين يضرب ضربته، حين ينتقم منك لاعتقادك أنك غير قابل للزوال، وحين تمارس سوء الأدب ببناء قصورك الرملية. أنا فعلتها ففقدت إيرين وآدم، حبيبة وابن في

لحظة حماقة واحدة. فلا تبق في مكانك متحديًا، كن خفيفًا يا سيف، اهرب كلما استطعت، لكن اهرب قبل أن تورّط أحدًا، لن تسامحك الحياة على البقاء في زاويتك إلا في حالة واحدة، حين ينهار كل شيء حولك، فقط في تلك اللحظة قد ينجيك أن تنحشر في الزاوية، حرفيًا.

يتجه بحر نحو زاوية الغرفة، يقف الغريب الذي سيموت بعد أيام بين الحائطين المتعامدين: زرت مرة قرية آسيوية فقيرة في منطقة كانت معروفة بأنها ضمن حزام زلازل متكررة، إلى درجة أنهم تعودوها فلم تعد حتى توقظهم من النوم، لم يكن لديهم الثروة لبناء بيوت مضادة للزلازل، فعاشوا في بيوت بلا أسقف، عاشوا عراة أمام الطير منكشفين أمام السماء، ومع ذلك كانوا يخشون أن تنهار الجدران، فكانوا يحشرون كل شيء بين الزوايا، الأسرّة والأرائك والأجهزة البسيطة إن وجدت وخزائن الطعام، حياة كاملة في الزاوية وفي الظل، حين كانوا يستيقظون في الصباح، كانوا يجدون الركام في منتصف الغرف وساحات البيت، يتطلعون إليه من زواياهم ويكملون النوم.

(٥) قبل الأبد بقليل

طريق السفر أفضل من الطريق الداخلي، والطريق الطويل أفضل من القصير، الحافلة خير من التاكسي، الترام خير من الحافلة والمترو خير من الترام، والقطار خير من المترو، وخير من الطائرة أيضًا لأن رحلته تستمر لزمن أطول.

والطريق الملتوي أفضل من القصير للسبب نفسه، دورك يا يحيى أن تلوي الطريق المستقيم ليدور حول نفسه ويدوم أطول، مهمتك يا يحيى أن تعرقل السائر وتديم الماشي، وظيفتك ألا ترسو السفن وألا تهبط الطائرات وألا يصل المسافر أبدًا، مهمتك أن تستمر الطريق إلى الأبد، فإن عجزت، فإلى ما قبل الأبد بقليل.

لاحظ يحيى أن مديره يطلب منه ملفات كان قد طلبها هي نفسها قبل يومين، ويطلب منه أن يرسل الملفات نفسها إلى إدارة أخرى لا تلبث أن تعيدها إليهم بعد أيام أو أسابيع، ولم يكد يتغير فيها سوى إمضاءات قليلة أو طوابع تمغة معدودة، يوقّعها المدير ثم يرسلها لتدور من جديد. في الملفات أوراق شخصية ومهنية لأشخاص تظهر صورهم الباهتة الرسمية بين هذا الملف وذاك، طلبات ممهورة وتوسلات وشكاوى، وإجراءات قانونية عادية، طلبات تجديد رخصة أو استخراج بطاقة أو ملاحقة ميراث، كانت الملفات نفسها تدور وتدور وتعود وتذهب وتجيء في دائرة لم يكن يلحظ يحيى استدارتها إلا حين يعود ملف ما يتذكر صورة أو اسم

صاحبه. ولتشابه الأسماء والسِحن كان كثيرًا ما يتشكك في ذاكرته إلى أن عاد ذات يوم ملف لم يكن قد نسي اسم صاحبته قط «أشجار توفيق»، فقد جعله يتبسم لحظتها ويتخيل السيد توفيق وهو يعتني بأشجاره، عادت «أشجار» إليه مرة أخرى ولم يكن من تغيير يذكر في أوراقها ولا في طلب معاشها المتعثر، هذه المرة ركّز يحيى في تصرّف مديره وراجع الأوراق الداخلة والخارجة حتى التقط أشجار في أثناء عودتها، وقلّب فيها، في ملفها، لم يجد سوى شبه إمضاء فوق شطب صغير قام به مدير، ثم عبارة «يحول إلى..» واسم إدارة أخرى كان الملف قد عاد منها لتوّه.

بمضيّ الأيّام صار يحيى متأكدًا أنهم، في إدارتهم الهادئة الفخمة، لا يفعلون شيئًا على الإطلاق.

وقد كان مخطئًا.

قبل قليل من التحاق يحيى بوظيفته، أو ربما حين كان لا يزال في زمن الغفلة ولم ينتبه بعد إلى دائرية مسار الأوراق، ذكر تقرير سرّي أن ثمة فائضًا في الوقت لدى مجمل السكان سبّبه الكساد الاقتصادي وارتفاع تكلفة الترفيه بما فيه حتى الجلوس على المقهى، فائضًا يساوي بالمتوسط نحو ساعتين في اليوم من ساعات اليقظة، ساعتين لا يقضيهما المواطن في العمل ولا المواصلات ولا الفرجة على الكرة ولا ممارسة الجنس ولا الأكل ولا الشرب، تزيد الساعتان أو تقلان حسب المواطن وظروفه وعمره وطبقته لكنهما تبقيان هما

المتوسط العام. هاتان الساعتان تعنيان نحو يوم كامل كل عشرة أيام، وثلاثة أيام في الشهر، و٣٦ يومًا في السنة، بضرب هذا الرقم في عدد البالغين من السكان والذي يتخطى ٦٠ مليون بالغ، تكون المحصلة مليارين و١٦٠ مليون يوم فارغ سنويًا. اهتزّت ركب المسؤولين لمجرد تصورهم ما يمكن أن تفعله أو تُستخدم فيه هذه الكمية الهائلة من الأيام من قبل الجهات المحرضة والمعادية أو العناصر الإثارية، وفي سرعة وسرية تم إنتاج عشرات التقارير لسد تلك الثغرة الزمنية، وكان المرشح الأفضل والمؤهل طبيعيًا للتصدي لذلك العدو الزمني، هو البيروقراطية. وفي سرية أشد، ودون إنشاء إدارات خاصة يمكن لها أن تلفت الانتباه، تمت زراعة وتجنيد العديد من العناصر في الإدارات، لتنفيذ التعليمات المطلوبة من أجل إشغال - بالأحرى هدر- أكبر قدر ممكن من وقت المواطنين، لسد هذا الثقب الزمني الأسود والتصدي المبكر لما أو من قد يأتي من داخله.

التعليمات الغريبة المعلقة في أروقة الإدارات الحكومة، طلبات الأوراق والتمغات والموافقات والطوابع النادرة في أيدي سعاة مختفين، المديرون الغائبون بأختامهم نصف الوقت، الطلبات التعجيزية لإنهاء الأوراق، المطبات الصناعية المتتالية في الطرق السريعة، الخرائط المتداخلة لإشارات المرور المعيقة، التخطيط المعطل للأسواق وفتحات الطرق ومنافذ «اليوتيرن»، الترتيب الصارم لانكسار مواسير الماء والصرف وانقطاع

خدمات الإنترنت، المسارات الجديدة الملتوية لخطوط النقل العام، والمحطات الجديدة للمترو التي قسمت المسافات القديمة أنصافًا وأرباعًا، كل هذا جزء من مجهودات هائلة بدت عفوية وبلا علاقة مرتبطة نجحت في خفض وقت الفراغ العام إلى أقل من ٢٠٠ مليون يوم سنويًا. هذا النجاح الباهر الذي تخطى التسعين بالمئة لم يكن كافيًا فبدأ نواب برلمانيون يتقدمون لأول مرة بمشاريع «الخدمة العامة» بدلًا من الغرامات والمخالفات والجنح، وتوسع رجال المرور ومفتشو النقل والمواصلات العامة والأجهزة البيئية في توقيع المخالفات ومن ثم جذب المخالفين إلى قضاء الساعات تلو الساعات في الأعمال العامة، واستخدمت تلك الساعات والمجهودات الوافرة المبذولة فيها في إنشاء مزيد من الطرق الملتوية ونقاط التوقف الإلزامية، وكل ذلك بانحرافات زمنية بسيطة يصعب رصدها لكنها تصب في النهاية في تقليل وقت الفراغ العام. وكان يحيى نفسه، كما عرف فيما بعد أحد جنود تنفيذ هذه المهمة المقدسة، وهو كمعظم جنود حرب الوقت لم يكن يعرف أنه يحارب، كان يفتقر إلى لذة التحكّم التي أعمت زملاءه من «الجنود» عن طبيعة المهمة التي كانوا ينفذونها حقيقة، فقط الرؤساء، مثل مديره، كانوا يعرفون بشكل مشوّش طبيعة مهمتهم وإن ظن معظمهم أنها حرب تشديد إجراءات وانضباط بيروقراطية أكثر منها حربًا ضد الوقت.

في حقيقة الأمر، كان من انتبه إلى طبيعة الحرب أناسًا من خارج جنودها، ربما تسرب إليهم الأمر عبر خيانة أو تبجح بيروقراطي، أو ربما محض استنتاج أكدته متابعة ودراسة متعمقة وشاملة لتغيّر الإجراءات البيروقراطية ومعايير الطرق والنقل والتشريعات، إلا أنهم في النهاية أدركوا - ولو بشكل عام وضبابي- طبيعة حرب الوقت التي تدار ضدهم، وتنهكهم، وتقتل في المهد أي أفكار لا تنشأ إلا في الفراغ، وبعد نقاشات عديدة انضغطت مدتها نتيجة ما حققته الحرب السلطوية في أشهر قليلة، توصلوا إلى وسيلة «تبادل الوقت».

نشأت المقاومة عبر شبكة هائلة عنكبوتية امتدت دون إدارة مركزية، من رجل لرجل ومن رجل لامرأة ومن امرأة لامرأة ولرجل، مفادها تنفيذ المهام اليومية بالتبادل لا سيما المستعجلة يقوم بها الشخص بدلا من الآخر، شراء احتياجات من السوق أو مراجعة مشروع مهني أو توصيل قريبة عجوز إلى بيتها، نشأت تطبيقات هاتفية لتبادل الوقت يزيد فيها «رصيد الوقت» لدى المستخدم كلما نفّذ مهمة يومية لحساب لآخرين.

اعتمدت النظرية على أن نسبة الفراغ اليومي ليست سوى متوسط، فالساعتان الفارغتان قد تكونان ثلاثًا لدى فلان ونصف ساعة لدى علان، من هنا نشأت، عبر تبادل الأوقات والمهام و» شحن الرصيد» من قبل الآخر عند تنفيذ كل مهمة، نشأت ثروات من الوقت لا تعتمد على المال بل على الزمن، لكنها - لطبيعة المهام اليومية-

لم تصل إلى الثراء الفاحش.

ولا يعني «رصيد» الوقت مجرد ساعات فراغ مقابل ساعات عمل، بل يعني شيئًا مختلفًا لدى كل شخص، خاصة من أدركوا أنه لم يعد لديهم الكثير من الوقت مقابل الذين ما زال ينتظرهم الكثير منه.

كم من رجل عجوز أدرك أن عمره قارب النهاية دون أن يحوز أيًا من متع الحياة التي طالما تاق لها، وكم شاب لديه ظروف لا بأس بها لا يعكرها سوى مهام العمل الرتيبة التي لا بد منها، تعال إذا يا أبي يا عمي يا شيخي، تعال ذق من كأسي وسافر إلى هذه البلد أو تلك، واحصل على كل المتع التي بإمكاني تحمل نفقاتها الآن على عكسك، لكن ليس لدي وقت للتمتع بها، ونفِّذ لي المهام الرتيبة تلك بخبرتك الطويلة، أعدّ من أجلي تلك التقارير وأجرِ تلك الحسابات وصنِّف المهام، اختصر لي الزمن حتى أتقاعد قبل عمرك بكثير، أو بما يكفي على الأقل، دعنا ندمّر تلك الحكم البائسة على غرار «الخبرة مشط تهبه لك الحياة بعد أن تفقد شعرك»، تعالي أيتها الجدة العجوز الوحيدة التي يقتلها ملل مراقبة الساعات، لديك الكثير من الوقت وهنا أطفال لا تعرفينهم يحتاجون الكثير من الرعاية والحنان، اخلقي لي وقتًا أبادله مع آخرين يبادلونه معك تلبية لاحتياجاتك وإصلاحات لبيتك، أيها القاعدون على محطات الأوتوبيس، استخدموا مهاراتكم راجعوا هذه التقارير ورتقوا تلك الملابس وقطّعوا هذه الخضراوات

كل حسب مهارته ومعرفته، زيدوا رصيدكم من الوقت فقد تجدوا من يوصلكم بسيارته الفاخرة من موعدكم البعيد لأنه يريد وقتًا يملكه آخرون غيركم.

وبطبيعة الحال سرعان ما انتبهت الأجهزة لمقاومي حرب الوقت «نشطاء الوقت» كما سمّوهم، من مصممي تطبيقات تبادل الوقت وواضعي أفكارها، كان يتم اصطيادهم واستجوابهم أحيانًا، وفي أحيان أخرى، كان يتم استهداف «أثرياء الوقت»، وتفريغ أرصدتهم، عن طريق احتجازهم في شبه غيبوبة لأيام أو حتى أسابيع، ثم رميهم على هذه الطريق أو تلك. أحدهم، وعلى سبيل منح الأمر لمحة سخرية ورعب، تم اختطافه يوم عرسه، وتصفية رصيده الزمني بتنويمه أيامًا، ثم إلقاؤه في قرية رحل جميع سكانها، لدرجة أنه حين استيقظ تصور أن العالم قد انتهى، وكانت تلك الأيام نفسها، التي التقى خلالها يحيى، بحسام يسري.

كان حسام يعاني من مشكلة في بطاقة هويته، فقد كانت الصورة لا تشبهه إلى حد مزعج، أو هي صارت لا تشبهه الآن، كانت الصورة قديمة التقطها له جهاز المصلحة الحكومية في الأيام التي كان يستعد فيها حسام لدخول التجنيد، فكان وقتها شابًا نحيفًا وقد حلق شعر رأسه كله تقريبًا، وكان له - في الصورة- شارب خفيف كان يعتد به وقت التقاط الصورة ثم سخرت منه فتاة كان يحبها فخجل وتخلص منه. لسوء حظ حسام أنه كان أحد الذين يتغير شكلهم سريعًا، في

السنوات السبع بين التقاط الصورة ولحظة وقوفه أمام يحيى كان قد سمن جسده ولحق به شيب وراثي، وكان قد صار حليق الذقن والشارب. في الواقع كان قليل من التركيز لدى أصحاب الخبرة كفيلًا بمعرفة أن هذا الرجل هو صاحب الصورة، من عينيه على الأقل رغم إجهادهما اللاحق، لكن حسام كان صيدًا ممتازًا لمحاربي فراغ الوقت، فقضى شهورًا طويلة يحاول إثبات أنه صاحب الهوية ليستطيع تجديدها، فقد كانت تسبب له المشكلات في كل مكان، في الإجراءات الإدارية والمالية ناهيك بالأمنية، كان شبه مقطوع من شجرة، بأب ميت وأخ أكبر سافر منذ سنوات وانقطعت أخباره، وأم ضريرة يرعاها الابن صاحب مشكلة «الهوية»، حتى اضطر وهو عازف الكمان الموهوب أن يلتحق بعمل أقرب إلى التسوّل، وحتى في ذلك العمل، برزت له مجددًا مشكلة صورة الهوية، ولم يكن له من أقارب الدرجتين الأولى والثانية من يستطيع أن يمضي إقرارا بأنه هو، فظل بيدقًا يتلاعب به محاربو الوقت.

لم يكن لدى يحيى ما يقدمه له، وسرعان ما غاب حسام عنه، إلى أن عاد بعد شهور، وقد صار وجهه يطابق الصورة، أجرى نظامًا غذائيًا صارمًا، عاد نحيفًا، صبغ شعره ليعود إلى لونه الفاحم القديم، أعاد تربية شاربه الخفيف، استخدم أنواعًا من الكريم أعادت جزءًا من نضارة بشرته. نجح حسام في أن يصغر السنوات السبع، وكان هذا تحديًا كبيرًا وخطرًا لمحاربي الوقت، ها هو

خصم واحد، قد كسب سبع سنوات دفعة واحدة، ٢٥٥٥ يومًا، طلبوا منه الانتظار، وتداولوا في الداخل سريعًا، ثم خرجوا إليه مبتسمين.

أخذوه إلى إدارة بطاقات الهوية، جلس أمام الكاميرا، والتقطوا صورته، صورته التي تعود فعليا إلى سنوات سبع مضت.

في تلك اللحظة أدرك حسام أنهم قد ثبّتوه في الزمن، سيبقى في عمر العشرين ذاك إلى الأبد، سيربي شاربه المخجل دومًا ويحافظ على نحافته وصبغة شعره، أخذ البطاقة في يده، تأملها كأنها بطاقة إلى الماضي بلا عودة، شكرهم بهزة رأس ومضى.

في تلك الليلة عجز يحيى عن النوم، تقلّب في فراشه حتى أزعج امرأته، وظن أن أمامه ساعات من الأرق إلا أنه جابه يقظة كاملة لم يجربها من قبل. ذهب إلى العمل في اليوم التالي، وكاد يسقط نائمًا وهو يقود سيارته وأيقظته آلات التنبيه مفزوعًا، ظل بين يقظ ونائم طوال ساعات العمل، وعند الانصراف خشي أن يقود السيارة فاستقل سيارة أجرة، وأيقظه السائق حين وصل إلى شارع بيته.

تناول طعامًا خفيفًا وحاول أن يحصل على قيلولة إلا أنه عجز مرة أخرى، وفي الليل كاد يجنّ، خاطب طبيبًا صديقًا فنصحه بمنوّم، لم يأت بمفعول حقيقي، وضعه على أعتاب النوم دون أن يلجه، ظل حتى الصباح لا يعرف إن كان صاحيًا أو نائمًا، خاطب صديقه مرة

أخرى، واتفق على زيارته في عيادة النهار بالمستشفى الخاص، ركب المترو هذه المرة، جلس جوار النافذة، داعبه هواء لطيف فسقط في نوم طويل جدًا.

استيقظ بعدما وصل المترو إلى محطته النهائية وعاد مرة أخرى إلى منتصف الطريق وقد تخطى عيادة صاحبه، رغم أن نومه كان مرهقًا على كراسي المترو الضيقة المزدحمة إلا أنه منحه انتعاشًا معقولًا شجعه على العودة إلى العمل، اغتسل سريعًا في حمام المكتب وأكمل اليوم في حالة أفضل من الأمس، تذكر السيارة التي تركها في جراج المؤسسة من اليوم السابق، فاستقلها سابقًا وكاد ينعس مرة أخرى لكنه تماسك.

صعد إلى البيت لكنه لم ير النوم حتى الصباح التالي. لا منومات صديقه نفعت ولا المجهود الذي يبذله ولا ساعات الاستلقاء الطويلة في التكييف ذي الصوت المهدئ، ولاحظ أن النوم لم يزره إلا في الطريق، في المركبات المتنوعة، ولاحظ أنه كلما كان الطريق أطول، نام باطمئنان أكثر. انقلب يومه، وصار ينزل مبكرًا ليلحق بالحافلات العامة في طلعاتها الأولى الفارغة بعد من الركاب وطرقها الطويلة، حفظ محطات المترو غيبًا ذهابًا ورجعة، وخطر له أن ينعم بنوم طويل حقيقي لأول مرة منذ شهور، فقطع تذكرة ذهاب وعودة في قطار أسوان، في كابينة النوم رقد كأنما في تابوت لـ ١٢ ساعة مظلمة، تجول في المدينة حتى موعد القطار التالي، ونام مرة أخرى إلى القاهرة ووصل والجوع

ينهشه، أكل بشهية لأول مرة منذ وقت لا يذكره، ووصل البيت وبقي صاحيًا في الفراش أمام أنظار زوجته القلقة. وأدرك أن استمراره في العمل، أي عمل منتظم مستحيل، لأنه يحتاج إلى أن يبقى في الطرق الطويلة والقطارات أكبر قدر ممكن، ولا يمكن - باستثناء قطارات الجنوب البعيدة- أن يجد قطارات في وقت النوم الطبيعي الذي يؤهله للذهاب إلى العمل متيقظًا.

ونفدت إجازاته ولم يعد أمامه سوى تقديم استقالته ولكنه لم يعرف ماذا يعمل إذا ترك وظيفته وكيف يعيش، ويومًا طلبوا منه الذهاب مع لجنة لفحص شكوى سكنية.

ذهب مع موظفين آخرين، ووقفوا في البيت محل الشكوى، قال السكان إن الضوضاء المنبعثة من أعمال بناء الفندق المجاور تمنعهم النوم، قالوا إنها تجعلهم عصبيين ومرتبكين وغير قادرين على التمييز، تساءلوا هل سيتم إزالة بنايتهم وهل سيُدفع لهم تعويض عن بيوتهم؟

ولم يلحظ يحيى ضجيجًا حقيقيًا وقال ربما لأننا في النهار، ربما يكبّر الليل أصوات الضجيج، وجلس وحين جلس شعر بسلام غريب، شعر كأن اهتزازات كاهتزازات القطار تنبع من داخله، كأن البيت يمشي على قضبان، واندهش السكان حين وجدوا الموظف يسأل عن بيت للإيجار في البناية محل الشكوى.

رفضت - بالطبع– زوجته الانتقال إلى هناك، كان يزورها

بعد دوام العمل، ثم يعود إلى بناية الضوضاء لينعم بالنوم المسالم، وهناك حكى للقصير الغريب وصاحبه القصة كلها.

(٦) المحبة هي الموت أو كيف عرفت أنني لم أغرم بإيرين

«أحببتُ الحياة كثيرًا في أثناء علاقتي بـ إيرين، وتوقفت لأول مرة منذ زمن عن التفكير المزمن في الموت» يقول بحر وقد وقفنا في «الميدان الجديد» نتأمل فتاة ترسم لوحة لحبيبين شابين تجمّدا لترسمهما وإن انفرجت شفاههما في ابتسامة واسعة.

وكان بحر يتابع: صار الوقت فجأة ثمينًا وأحببت عمري كما يقولون في الأغاني، الأمر الذي شككني في أنني أغرمت حقًا بإيرين نفسها، فقد عرفت من حب قديم أن السعادة الحقيقية في الحب ألا يزعجك إطلاقًا أن تموت الآن وهنا حالًا، ثم إنك قد تحب نفسك والآخر، أو تحب الآخر وأيامك معه، أو تحب نفسك وأيامك مع الآخر، كل علاقة بين اثنين ثالثها الزمن، وكان هو من أحببت في علاقتي بإيرين. ومع ذلك فإن الغرام درجات ولنقل إنني كنت مع إيرين في الطابق العاشر من ناطحة سحاب، بعيدًا عن الأرض أبعد بكثير جدًا عن السماء.

وبدا الحبيبان رغم وقفتهما المتجمدة متحمسين لكن الفتاة رغم براعة خطوطها بدت كأنما تضرب فرشاتها بحركات آلية، وتحاول الابتسام من وقت لآخر، وربما كان هذا انطباعي لا أكثر، تأملناهم لبعض الوقت - الفتاة واللوحة والحبيبين- ثم واصلنا المسير.

وكان بحر يقول: ربما لذلك، حين انتهى كل شيء في صباح شديد البرودة عند بحيرة مهجورة، طفرت دموع

جاءت من طرف العين لم تصعد من داخلي، دموع تشبه دخان سجائر المراهقة حين كنا نعجز أن نأخذ «النفس» إلى صدرنا فننفثه من أنوفنا وحلوقنا. فيم كانت لحظات المرح والمتعة والمشي والأفلام والاحتفالات الصغيرة إن لم يخلق كل ذلك داخلي لحظة النهاية دمعة حقيقية؟

أين ذهبت ملاعبتي لآدم الصغير إن كنت أراه في خيالي الآن كأنني أرى دمية صغيرة، في جزء من الثانية صرت في عالم غير حقيقي وصارت إيرين وآدم وأنا غير حقيقيين، أو قل إن انتباهي المستمر إلى حقيبتي الدائمة بجوار الباب قد أحدث في قلبي عطبًا دائمًا أعجزه عن الكثير من وظائفه، القلق ينخر جدران القلب كما يحفر الماء صخرة تبدو للناظر المؤقت وكأنها لا تتأثر.

جلست في ذلك اليوم البعيد على ناصية الطريق وحافة البحيرة مودعًا حياتي التي أودعتها في جسدين، أحدهما ناعم للغاية والآخر صغير جدًا، هل دفنت اثنين من قبل؟ أنا فعلت. فعلت ولم أبك، عرفت أن الحياة تصرفت كما ينبغي لها وأنني نسيت وقبعت في هذا الحب ولم أهرب في موعدي المناسب، فهوت مطرقة الحياة حيث كنت أقف، فتابعت الهرب.

هربت ولم يزل كل من آدم وإيرين هما جمهوري الصامت الخفي الذي يصحبني في كل مكان، يراقبني بلا كلام ويتطلع إليّ ربما منتظرًا أن أبكي أخيرًا. أمرُّ

أحيانًا حيث أعيش على متجر مخبوزات يشبه المخبز القديم الذي كانت إيرين تعمل فيه، أتناول بعض الفطائر من البائعات وأتخيّلهن زميلاتها وأتخيل أنهن يتأملنني بحزن. أجلس محاولًا أن أبدو أكثر حزنًا مما أنا عليه، أخشى أن يتجمع الجليد فوق وجهي مرة أخرى فيخفي التعبيرات التي أود الإيحاء بها، كان وجهي الجامد ذاك أول ما جذب إيرين إليّ آنذاك، أسرّت لي فيما بعد أن العبوس الرجولي مع ملامح سمراء كانا أقوى من أن تقاوم. منذ جاءت من إحدى بلدات شرق أوروبا إلى مدينة في الشرق نفسه وهي تعمل بلا راحة وبلا حب، حين طلبتُ منها الطعام يومها وتجاوزت فطلبت أكثر، قررت هي أن تستجيب، أن تأخذ خطوة، ألا تكتفي بكونها ترسًا في آلة بعد اليوم، ذلك - كما تعلم الآن يا سيف- كان خطأها.

وهو خطئي بصورة أكبر لأنني كنت أعرف أن بقاء المرء في مكان يعني أن يضع نفسه في مرمى القدر، ستكتسحك موجة الحياة وتجرفك بعيدًا وبعد أن تتخلص منك في زاوية أو ركن ستكون قد حطمت عظامك، ولكن من كان يستطيع أن يرد العينين الزرقاوين في المخبز الإفرنجي؟

هذا مضحك قليلًا لأن كل مخبز هنا كان إفرنجيًا بالضرورة. كان لدينا واحد في بلدتنا وكانت أعرف أنه يسوّي العيش الفينو مقابل المخبز الآخر الذي يخبز العيش البلدي، ولكن معظم النسوة كن يخبزن في

بيوتهن الأرغفة الثقيلة الكبيرة التي يشبه طعمها أحيانًا الفطير المشلتت، ثم بدأن يكتشفن أن الفرن الإفرنجي يمكن أن يقوم عنهن بالكثير في تسوية كعك العيد فكن يذهبن بالصواني إلى هناك في النهار، ويرسلن الأولاد لجلبها في الليل. وهناك في الفرن جربت لأول مرة التدخل في مسار الحياة حين طلبوا منا نحن الأولاد المنتظرين أن نساعدهم في وضع الخبز الفينو الصغير في الأكياس وربطها، كل خمسة أرغفة في كيس يطلق عليه «كايزر». وهنا قررت أن أكون سببًا في سعادة الحظ لبعض المجهولين، فأخذت بين كل كيس وآخر أدس رغيفًا أو اثنين زيادة فوق الخمسة دون أن ينتبه إليّ أحد، وأخذت في الأيام التالية أشتري «الكايزر» للمدرسة من هذا المحل أو ذاك على أمل أن أصادف أحد الأكياس التي عبأتها لنفسي، ولم أصادف أحدها حتى تصورت أن الأمر برمته لم يكن سوى وهم، وكذلك يكون الأمر نفسه حين تفعل أو تتصور أنك تفعل الخير لأحد خاصة لو لم تكن تعرفه، لكن انظر إلى أين ذهبت بالكلام وإلى أين أخذتك وتركت إيرين واقفة تنتظر إتمام حديثنا.

كانت إيرين بلا شك ألذّ حلوى في ذلك المخبز، وكانت سنوات قد مرت عليّ في تلك البلاد ولم أعد أعاني مشكلات الأوراق وكان معي بعض المال من أعمال متنوعة، وكان كل شيء يساعد الفخ أن ينصب وقد وقعنا فيه، أو وقعت أنا لأنني كنت أعرف أنه فخ أما

إيرين فمن أين كان لها أن تعرف، ومع ذلك فقد تلقينا العقاب معا فانظر كم هي شر مطلق تلك الحياة.

ومع ذلك فإنني لم أقل سوى صباح الخير يا فتاة، ما أجملك.

ونظرت الفتاة إلي وابتسمت: ماذا تطلب سيدي؟

قلت لها: موعدا؟!

وتحولت ابتسامة عينيها إلى استهجان ضاحك، وكان الموت وراء الزجاج يتأمل صيده الجديد، لكنه انتظر حتى صرنا ثلاثة.

ووصلنا في مسيرنا إلى آخر أطراف «الميدان الجديد» حيث كانت أسلاك شائكة وعربات مدرعة يستريح فوقها عساكر شاردون، لم نقترب منهم ولم تشجعنا الممرات الصامتة وراءهم على الاقتراب.

وكان بحر يتابع، لقد سألت نفسي: إذا كانت الأمومة غريزة تحفظها الجينات، فما الأبوة؟

وعرفت، وقد لا يناسب ما عرفته كل واحد، إنها نوع من غسيل الحياة كما يغسلون الأموال، ها هي جيناتك، تولد من جديد، بريئة بلا خطايا، وها أنت مكلف بمهمة مقدسة لرعاية هذا الكائن الرقيق الذي يعتمد عليك في كل شيء، الذي لا أب له في العالم غيرك، أي ارتباط هذا! هكذا، يمكن أن تغالط نفسك إذا حدثتك بخطاياك، إذا نفخت مجددًا في بوق الخطر وقالت اهرب، وهنا تقدم لها طلب التأجيل الذي تسميه ابنك، وتطلب منها الانتظار حتى ترعاه ليكبر و- ماذا يقولون؟ بلى، يشب

عن الطوق.

وكان طلبي أنا للتأجيل، ذريعتي لعدم قتل نفسي، فرصتي الجديدة، اسمه آدم. هكذا اخترت الاسم مع إيرين لفظًا يسهل على كلينا نطقه. انتظرت بفارغ الصبر ما لم أنله قط، أن أسمعه يلفظ الكلمة الأولى لأرى كيف ينطقها، كيف سيلفظ لسانه مزيج اللكنتين اللتين يسمعهما من أبيه وأمه. انتهى كل شيء قبل أن يجمع حروفه الأولى في كلمة واحدة، ما زال صوته وملامحه التي اقتبست ظلًا طفيفًا جدًا من سماري يشكلان ذاكرتي عنه، صوت يغرّد بأحرف متناثرة، وشفتان رقيقتان كانتا تمتصان رقبتي بحماقة حين أحمله كأنه سيرضع من جلدي، وعينان واسعتان زرقاوان مثل عيني إيرين.

هذه المرة لعبتها الحياة بذكاء أشد، بضربة مزدوجة ساخرة، استخدمتني لإثبات مفاهيمها. جرت شهور السنتين الأوليين على خير ما يرام، الارتباط والحمل والإنجاب وبدت لي حياتي القديمة أقرب إلى حكاية مكذوبة سمعتها قبل مئة عام، وكنت أستيقظ في منتصف بعض الليالي بفزع غير مفهوم وعرق بارد دون أن أذكر شيئًا مما رأيت في نومي، وربما لم أر شيئًا على الإطلاق ولكنها الحقائق التي كنت أعرفها والضربة التي كنت أنتظرها تتحسس جسدي في أثناء نومي لتفترسني.

جاءت الضربة من فتى لم يتجاوز المراهقة كان يضايق

إيرين في الطريق في أثناء توجهها إلى المخبز صباحًا، كان يضايقها بمزيج من الغزل والتحرش والعنصرية، كانت إيرين مغتربة هنا مرتين، مرة لأنها «مغتربة» من بلدتها البعيدة ومرة لأنها تساكن شخصًا «ملونًا»، كان الفتى يعلق على صدرها الحليبي بكلمات بذيئة، وحين تبتعد أو تنهره غاضبة كان ينعتها بـ بكلبة الأسود.

كان سكننا بعيدًا عن مركز المدينة، ولم يكن البوليس آنذاك وفي مثل تلك الضواحي فعالًا جدًا في هذه الأمور، خاصة أننا لم نعرف اسم الفتى ولا أين يقطن، كانت المنطقة مليئة بعصابات من فتيان في عمره، ولم أعرف بكل هذا الأمر إلا متأخرًا، حين انفجرت إيرين بالبكاء مرة فأيقظتني دموعها قبل طلوع الصباح، أوصلتها إلى العمل يومها، ولم يظهر الفتى، وكذلك في اليوم التالي، في اليوم الثالث رأيناه، حاولت التوجه نحوه، بدا طويلًا للغاية ونحيفًا، ويجلس على سور كان يطل على بحيرة صغيرة كانت تخلو صباحًا ويؤمها الناس في الإجازات لقضاء يوم على العشب، لكن إيرين منعتني وقالت لا داعي، يكفي أن يراك معي فيخاف أن يكررها، كنت شابًا آنذاك عريض الصدر بادي الفتوة رغم قصر قامتي، لم أكن أزيد عن عمر الفتى إلا بضع سنوات، تطلع إليّ الفتى بصمت وإن بنظرة وقحة، أوصلت إيرين عدة أيام ولم نر الفتى مرة أخرى، كنت أوصلها وأعود إلى البيت لأكمل نومي ساعة ثم أذهب للعمل في «النقاشة» إذا كان هناك عمل ونترك آدم مع

مربية صغيرة هي ابنة أحد الجيران.
وبدت إيرين سعيدة وزادت من الاحتفاء بي لكن بعد يومين تغير وجهها مرة أخرى، وقررت أن أنهي المسألة.
هنا يمكن أن تلاحظ: كيف أن إدراكك لقوانين الحياة لا يجعلك شديد النجاح في تجاوزها أو مراوغتها، كنت أدرك أن شيئًا خطرًا سوف يقع لكني لم أستطع أن أقاوم، نمت بجوار إيرين وأنا أشعر بضربات قلبي تحرك جسدي كله من فرط قوتها.
وفي الصباح قبلت إيرين وقلت لها إن لدي عملًا من الصباح الباكر، نظرت إليّ بقلق ثم قالت: انتبه لنفسك يا صغيري.
قبّلتها مرة أخرى ولم أقبل آدم خوفًا أن يصحو، وخرجت، ولم أرهما مرة أخرى.
في الطريق إلى البحيرة لاحظت أنني أضم قبضتي اليمنى بقوة، وحين وصلت لم أجد أحدًا، ثم تناهى إليّ همس وراء الحاجز الحديدي فاقتربت، كان الفتى ذاته يجلس وراء الحاجز وكانت معه فتاة في مثل سنه وكانا يدخنان شيئًا ما.
وقفت أرقبهما للحظات، وفكرت أن أبتعد، ولكن الفتى رآني، وناداني بصوت مخدر: هيييه! يا أسود.
وقفت وواصل هو: أين كلبتك؟
كانت الفتاة معه تنظر إليّ باستفهام، لكنها ضحكت حين أضاف رفيقها: هات كلبتك، نرحب بالثلاثيات هنا.
لا بد أن المخدر الذي كان يدخنه أيا كان قد أثر على

قوّته، فلم يكن صعبًا كثيرًا أن أطرحه أرضًا، كانت نيتي حين خرجت أن ألقنه درسًا، أن أضربه بقوة أستمدها من بكاء إيرين لكن من ذا الذي يعرف ما سيحدث بعد دقيقة واحدة من لحظته الحاضرة؟

كان راقدًا على ظهره فوق عشب البحيرة، وكنت فوقه، وكل منا يمسك بعنق الآخر، ثم وجدت أيدي صاحبته تحيط عنقي من الخلف وتضغط، كانا يخنقانني معًا، ولم أستطع إلا أن أزيد الضغط بدافع جاء من أعمق نقطة في ظهري، ورأيت عينيه تجحظان وتخيلت لوهلة أننا سنموت معًا، ولن تبقى إلا تلك العاهرة التي تخنقني.

قرأت مرة، أن أكثر من ٩٠ ٪ من سجناء «عنابر النفس»، أي أولئك المدانين في جرائم القتل، تكون تلك هي جريمتهم الأولى والأخيرة، معظمهم أناس عاديون جدًا، لمستهم لحظة من خارج العالم فجعلتهم وسيلة لانتزاع الأرواح، ثم انسحبت منهم اللحظة تلك فعادوا عاديين مندهشين، يتطلعون إلى جثث ضحاياهم مذهولين محاولين إعادتها إلى الحياة، كأن هذا ممكن لأنهم لم يموتوا إلا من ثوان قليلة.

وفي تلك اللحظة عند البحيرة، بين خنقي له وخنقهما لي، تذكرت:

في إحدى ليالي استجوابي، يوم قبضوا علي في المظاهرة، طلب مني الضابط طلبًا غريبًا.

كنت أمر بين مكتب وآخر، مغمى العينين، دفعوا بي إلى أحد المكاتب، وسمعت صوتًا بجواري مثل اصطدامات

متكررة بشيء معدني، رفعوا الغمامة، وقال لي الضابط: اقتل ذاك.

نظرت، وإذا بالذي يطلبون مني قتله، فأر صغير كان حبيس مصيدة.

وكان الصوت المعدني الذي سمعته قبل لحظات، هو صوت الفأر يحاول الخروج من بين القضبان المعدنية بلا جدوى.

وقفت ببطء وما زالت عيناي لم تتعودا تمامًا على الضوء، ولم أعرف كيف أقتل الفأر، بأي أداة وهو داخل المصيدة، فوقفت أمامه حائرًا.

وإذا بالضابط يشير إلى دلو ماء، ويقول: أغرقه يا حمار.

لم أفهم لم يطلب مني ذلك، لم يبد الأمر تعذيبًا ولا درسًا ولا أي شيء، بدا كطلب عادي وفقط لم أعرف لم يتوجه إلي تحديدًا بالطلب.

لم أكن قد فعلتها من قبل، وتوجهت نحو المصيدة القصديرية، وقربت يدي بحذر خوفًا من أن يعضها الفأر، لكنه كان خائفًا أكثر مني بكثير، انكمش في ركن القفص، ونظر إليّ بعين محتقنة مرعوبة.

تناولت المصيدة بأطراف أصابعي، وقلت سوف ألقي بها داخل دلو الماء وأبتعد، وإن لم يتركوني أبتعد، فسوف أغلق عيني أو أحاول ألا أنظر.

ألقيت بالمصيدة والفأر داخلها وابتعدت، لكني اكتشفت أن الدلو ضيّق، وأن طرف المصيدة ينحشر في طرف الدلو ويمنعها من الغرق الكامل، هكذا غاص معظم

المصيدة في الماء، عدا طرفها العلوي، فتشبّث الفأر بالقضبان بارتعادة هيستيرية، ودفع طرف أنفه ليستنشق الهواء.

وقفت أحدق في الفأر المتعلق بالقضبان، ولم أعرف ما عليّ أن أفعل، وبعد لحظات نظر إليّ الضابط وضحك قائلًا: مش عارفة تموّتيه يا بيضا؟

وأشار نحو دلو آخر، وقال: صبّ عليه.

رفعت الدلو الآخر، وبدأت صب الماء فوق أنف الفأر الخارجة بين القضبان، دفعة الماء المنهمرة دفعت الفأر إلى أسفل، ونهرني الضابط كيلا أهدر الماء أو أسكبه على الأرض، واصلت الصبّ ببطء فوق رأس الفأر كلما رفعها، أخذ الفأر يحاول ويحاول رفع رأسه دون جدوى، غطّى الماء حافة الدلو بالضبط وصار أنف الفأر تحت الماء بملليمترات، بعد قليل استسلم وتوقّف عن الحركة، وغاص لأسفل.

عاد الضابط إلى ما كان يفعل، أعاد أحدهم الغمامة على عيني وأخذوني إلى الزنزانة.

تذكرت ذلك في تلك اللحظة على حافة البحيرة الأوروبية. وأنا أصارع ذلك الفتى.

كم كان عمر الفتى عند البحيرة؟ ربما ١٧ أو ١٨ أو ١٩ عامًا، أيا كان فقد انتهى عند هذه اللحظة، أو هكذا بدا، فقد صار الصمت شاملًا فجأة، والتفتّ خلفي فلم أجد الفتاة، وعدت أنظر إلى الجسد الذي كان يصارعني قبل ثوان فقط وقد تجمد فجأة، وفيما بعد، كلما تذكرت ذلك

الخمود السهل المفاجئ، كنت أفكر في هشاشة الوجود الإنساني، وفي أنه بالنظر إلى تلك الهشاشة فإن الغرور هو أشد مشاعرنا غرابة.

ولكني في تلك اللحظة الصباحية لم أكن أفكر في الفلسفة، كانت رقبتني تؤلمني جدًا وشعرت أن روحي ستخرج بدورها، وتطلعت حولي وكان كل شيء كما هو، البحيرة والعشب والأشجار الهادئة والطيور الصباحية، ورأيت في خاطري صورة إيرين وآدم نائمين في البيت، وعرفت أنني لن أراهما مرة أخرى وبدا ذاك لي عادلًا، آها، هل ظننت أنني دفنتهما، حرفيًا، حين قلت لك إنني دفنت اثنين؟ ينبغي يا سيف أن تتعلم النظر إلى المجاز فهو أكثر اتصالًا بالحقائق المتشابكة وراء خداع الواقع.

ونظرت إلى الفتى مرة أخرى، ألا يفتح الموتى عيونهم محدقين في الفراغ، فلماذا يغمض هذا الفتى عينيه؟

وتملكني للحظة شبح أمل في ألا يكون قد مات، عدت أهزه وألطمه وأضرب صدره، عدت أفتح أسنانه وأنفخ في فمه، أخذت أفعل كل شيء رأيته وسمعته وقرأت عنه، كم استغرق ذلك، ١٠ ثوان أم ساعة؟ لا يعرف ذلك سوى الأشجار التي راقبتنا صامتة.

ولكن قبل أن أستسلم تمامًا اقترب صوت وصراخ من بعيد، فوقفت، وعرفت أن عليّ أن أواصل الهرب، حتى من اسمي هذه المرة، هربت ولم أعرف ما جرى له ولا ما جرى لإيرين وآدم، فقد نشبت الحرب العرقية في البلاد بعدها ولم تترك نفسًا ولا حجرًا في محله، ورأيت بعد

سنوات في جريدة صورة تشبه المنطقة التي سكنّاها وخيّل إليّ أن هذا كان بيتنا لكنه لم يكن سوى كومة أحجار ارتفع بعضها كأنه شاهد قبر. وقلت إذا كانت الحياة قد عاقبتني على توقفي الطويل في هذا المكان، وهدمت ما أنشأت، فعلام كانت تعاقب الفتى؟ ليس على وقاحته فلا شأن لها بذلك، من يدري، ربما عاقبته على جلوسه اليوميّ المستقر في المكان ذاته.

(٧) الإذن

لم يتأخروا، صحبوه إلى دفنها وانتظروا أياما قليلة ثم جاؤوا على استحياء، أما أحمد فأغلق الباب على نفسه في الأيام الأولى ثم استجاب لهم أخيرًا، وكاد يقول لهم وكيف كانت تمضي حياتكم قبل رؤى أبي؟ وتصوّر أنهم سوف يسألونه ويستفتونه في صغائر أمورهم كما كانوا يفعلون مع أبيه عبر أمه. لكنهم فاجؤوه بأن اجتمع كبارهم في حضرته، وقالوا إنهم يريدون أن يستشيروه، أو يستشيروا أباه إن كان على تواصل معه، في أمر واحد هام لا غير، وعندها فقط عرف بعودة سالم من غربته الأوروبية.

أخبروه بعرض العائد سالم عن السفينة والتخفيض والعدد، سألوه إن كان يتذكر سالم؟

لا لم يكن يتذكره، وأخبروه بتفكيرهم في أن يرحلوا جميعًا، وجميعًا أي جميعًا بمعنى الكلمة، فاندهش أولًا ثم بدت له الفكرة مثيرة، ثم فكر في غرابة أن يواجه الموت مع من عاش بجوارهم طوال حياته، وقالوا له إنهم عزموا على الرحيل لكنهم يريدون الرأي الأخير، وإنهم سيبدؤون الإجراءات لكنهم سينتظرون منه الرد إن استطاع، ووجد نفسه يعدهم بالإجابة!

وأغلق الباب على نفسه مرة أخرى لكن الجدران سكتت ولم تبح بشيء، وبات ليلة في غرفة أبويه فلم يحلم إلا بالبحر وببعض ذكريات الصبا.

ثم خرج مرة في الليل مبتعدًا عن البيوت ولم ير سوى

السماء وبعض النجمات وشواهد قبورهم العالية في ضوء القمر، هناك أمه وأبوه صامتين إلى الأبد، واقترب من القبور لكن قلبه انقبض فعاد إلى أطراف الساحة، وغفا قليلًا دون أن ينتبه ولم يأته أحد في نومه ولا في صحوه ولكن أعجبته الوحدة وطمأنه الصمت. وفي مرة ثانية قابل مسافرًا وقف يرتاح عند مقهى الليل البدائي الصغير على الطريق، كان رجل الشاي قد نام وبدا المقهى المحاط بالخوص مهجورًا فربط الرجل بغلته واستراح على الدكة الخشبية، وسأل الرجل عن طريقه وسأله الرجل عن سهره بالخارج فقال إنه يتمنى أن يرى أباه، فسأله الرجل ولم لا تذهب إلى جدار الرؤيا في الصعيد، قالها ببساطة كأنه يحكي عن الكعبة أو الأهرامات أما هو فكان أول مرة يسمع عن ذلك الجدار.

واستأذن من كبار قريته وإن لم يخبرهم بمراده، ورحل حتى وصل وصعد الجبل في الفجر، وطلع الصباح عليه وعلى طالبي الرؤية في الجدار الفرعوني، ورآهم ينظرون ويبكون ويتنهدون وينادون بأسماء ذويهم، لكنه لم ير سوى التماعة الشمس على الجدار حتى ارتحلت عنه ورحل الناس، وبات يومين بلا جدوى فكأنه الأعمى الوحيد هناك.

وعاد إلى «وهدة» بلا أمل، وحين وصل خيل إليه أن العزبة قد خلت من أشياء كثيرة، لا عربات ولا نصبات الخردوات ولا لعب الأطفال، كأن يدا عملاقة امتدت ومسحت شوارع القرية كما تمسح سطح طاولة. وحين

زاروه في المساء لم يستطع أن يردهم، استقبلهم ونظر في الأرض لكنه وجد نفسه يقول: رأيت أبي يمشي على الماء ضحوكًا ورأيتنا نتبعه.

وهتف أحدهم: الله أكبر.

والتمع الفرح والعزم في أعين البقية، ونهضوا كل إلى بيته ليمضي لياليه الأخيرة فيه، وفي الليلة الموعودة، غادروا فغادر معهم نحو البحر، وتوقف قليلًا قبل مغادرة القرية يساعد شابين انتزعا لافتة العنوان وطمراها في التراب. وحين وصلوا وباتوا وجاء القارب صعدوا جميعًا، وساعد مع من ساعد من الشباب في صعود العجائز والأطفال، ولكن قبل أن ترتفع المرساة وجد نفسه يختفي في الظلام، ومن قلب الخوص والعشش رأى المركب تبتعد بناسها وذكرياتها، وطن صغير يركب البحر، ومن مكانه لاحظ أنهم لم يلتفتوا وراءهم.

ولم يعد إلى القرية المهجورة، عاد إلى بعيد، إلى الجبل الصعيدي وإلى الجدار المرتفع، لم يعد يطلب رأيًا تلك المرة بل أراد تأكيدًا، أراد إشارة من أبيه بأنه لم يلق بهم إلى التهلكة، أراد موافقة أو ابتسامة أو نظرة عدم اعتراض. صار على عكس الزائرين مقيمًا لدى الجدار، مساعدًا من يأتي كأنه مِن خدمِ الأضرحة، وظل عاجزًا عن أن يرى ولم يعرف لماذا. حتى الغريبان اللذان جاءا يومًا رأيا، على الأقل أحدهما رأى ثم نام، الكبير قصير القامة كان يدوّن أشياء ويتفرج واستمع منه إلى

حكايته، أما الشاب فكان غائبًا عن الدنيا بلا أدنى حركة ولا اهتزازة وتلك علامة الرؤيا.

(٨) علبة ألوان على أرض رمادية

أو كيف تكتشف أنك أيضًا أفريقي

قبل ساعات من رحيل السفينة التي كان ينبغي أن تعيدني إلى الوطن، جلست أشرب مع صاحبي المغربي كؤوسًا تلو كؤوس، يقول بحر، جلسنا على أرض صخرية مثل هذه ولكن كان يغطيها العشب، جلسنا وغير بعيد بدت لنا أبراج سفن الميناء، وتناقص الوقت كماء في قارورة مثقوبة، ومع كل قطرة براندي كان وهني يزيد ولامبالاتي تقوى. وحين حلت الساعة العاشرة صباحًا كان السيف قد سبق العذل، ورأيت سفينتنا تتركني وتبتعد وتخيلت أني سمعتها تطلق صافرة هائلة، وخيل إليّ أن الصافرة تقول: بحر.. بحر.

ورحلت الباخرة، وشاهدتها من مكاني فوق العشب كما لو أنني أشاهد حياتي ترحل، ماضيّ وكل ما عرفت، انسابت بلادي بعيدًا مثل الموجة تنسحب من الصخرة عائدة إلى الماء، كان سفر الطلبة للعمل في الشمال سهلًا في بدايات شبابي فذهبت وكنت أعرف أنني لن أرجع، لكني لم أحسم قراري تمامًا إلا وأنا أشعر بسريان السعادة في دمي حين شاهدت السفينة تعود بدوني، وعرفت أنني لا بد سأختبئ طويلًا وأعاني أكثر لكن كل شيء يهون ما دمت بعدت عن مرحاض العالم الذي كنت أسميه وطني.

ومنحني البراندي نفحة شجاعة فأخرجت القداحة من جيبي وأشعلتها بيد، وباليد الأخرى أمسكت جواز سفري

الضخم الثقيل كمصيبة، وقلت النار تخلص كل شيء.
كان بحر يحكي بينما رائحة الملح في الماء تفوح كأنما تأتي من حكايته لا من الساحل القريب، والبوص يتضارب بقوة الهواء ولا أحد هنا لكنهم يقولون إن القوارب من هنا تغادر، وإن القرية الهاربة «وهدة» انسلت من هذا اللسان الرملي الصغير الذي نجلس قربه.
كنت صامتًا وقد ملأني شعور بثقل كئيب منذ حكى لي قصته مع الفتى الميت أو الذي ظنه ميتًا، ولم أكن أعرف أن نهايته اقتربت وأنه لن يعود معي. وفي الصمتين، صمتي وصمت الشاطئ المهجور إلا من موج خفيف كان يحكي عن أيام هروبه الأولى.
قضيتُ أياما في ذلك الكامب مع شبان آخرين، من شرق أوروبا ومن آسيا، كانت غرفة الغسيل في طرف المعسكر، وكانت ممتلئة دائمًا بالملابس دون أن تجد فيها بشريًا، كأنهم يدخلون ويخرجون مرتدين طاقية الإخفاء، كانت أجهزة التجفيف مليئة بدورها فكنت أضطر غالبًا إلى نشر ملابسي على مناشر بلاستيكية، ودخلت يومًا أبحث عن ملابسي بعد جفافها فلم أجدها وسط زحام الملابس، فأشار شاب كان يقف هناك بالصدفة إلى ملابسي وقال: هناك هناك. واندهشت أنه عرفها فورًا، وبعد قليل من الوقت لاحظت أن الغالبية العظمى من الملابس، كان يغلب عليها اللونان الأسود والأزرق، عدا ملابسي، فقد كنت أرتدي قمصانًا وتي شيرتات وشورتات منها الأبيض والأزرق والأحمر

والأصفر، ومنها المخطط بالعرض وبالطول والمنقط، كنت مثل علبة ألوان على أرض رمادية، لطخة حمراء على خلفية سوداء. لقد انتبهت فجأة لحظتها أن بهرجتي اللونية هذي عادت بي أخيرًا إلى قارتي السمراء، وتذكرت حين كنا نرى الأفارقة اللاجئين في مصر بألوان ملابسهم الفاقعة المبهرجة فنضحك ونسخر أو نتأمل بدهشة، وتذكرت ساعتها فريق الصامتين الذي أخبرتك عنه؟ ألم أفعل؟

على كل حال لم أنتبه إلى أنني كنت على الشاطئ الأوروبي نفسه الذي سكرت فيه مع المغربي منذ ما يقرب من ٣٠ عامًا، عدت إلى الشاطئ ولم أعد فيه غريبًا، هل كان هو حقًا أم يشبهه؟ كنت أجلس وحدي هذه المرة، وعلبة البيرة في يدي في مطلع الصباح. كما تعلمت قديما كنت أدفن علب البيرة في الرمل لتحافظ على برودتها، وذلك حين لمحت شيئًا جلبه موج المد إلى تحت أقدامي، كان شيئًا ما خشبيًا، يبدو لعبة بدائية، تأملته وقد أكله الملح، وخفق قلبي لأول مرة منذ سنوات.

كانت عروسة خشبية، يسمّونها حيث كنت أنتمي «سمنّوس»، تلعب بها البنات الصغيرات، تصنع من القصب الذي يصنع منه الناي اللعبة، تدهن بالأصفر والأحمر، وتزرع رأسها بخصلات حقيقية من شعر الأم وفي داخل الرأس المتكون من دومة، توضع رقيَة لحفظ البنت من الشر والشياطين والغرباء.

أمسكت «سمئوس» وتأملتها ومن خلفها كان الضوء الأحمر يصعد من الأفق وراء البحر، ونظرت إلى ما وراء الموجات الأولى وفي الأزرق رأيت شيئًا يتخبط في الماء، وسمعت الصوت الهادر لزورق بخاري من لنشات شرطة البحرية يتجه نحوه، ولم أستطع من مكاني أن أرى كنه الجسم الذي رفعوه، لكن سرعان ما اتضح أن ذلك الجسم أيا كان، كان مجرد بداية، فقد امتلأ الماء بالأجساد فجأة، صارت تصعد من داخله إلى أعلاه كالفقاقيع، وصار المد يجلبها إلى الشاطئ رويدًا رويدًا، وإن لم تكن العروسة الخشبية قد أكدت لي شيئًا، فقد ملأتني رائحة أكدت لي كل شيء، وأعادتني الألوان المتناثرة إلى ما كنت قد نسيته، ومنحتني الإشارة الأولى لعودتي هذه، لرحلتي إلى هنا.

وعلى الشاطئ الذي جلسنا عليه أنا وبحر كانت طيور السمّان تقترب من الأرض بقوة ثم تتوقف فجأة كأنها تجمدت في الهواء، ومع تزايد الضوء رأينا الشباك الشفافة التي نصبت في الهواء على قوائم عمودية، وكانت الطيور المتحمسة قليلة الخبرة تشتبك في الخيوط الرفيعة ولا تطير ثانية.

(٩) ما يضيع في أثناء النوم

في الفندق الصغير الذي نزلنا فيه بالبلدة الأقرب إلى شواطئ الهرب، استيقظتُ وجربتُ فتح الهاتف مرة أخرى، بعد محاولات التقطت إشارة ضعيفة، وأتتني رسالة بأنني استقبلت مكالمات لا حصر لها من رقم واحد، وكان رقم ليلى، خفق قلبي وذكرتني الاتصالات العديدة بيوم شبيه في الماضي، اتصلت بها فكان هاتفها خارج الخدمة، اتصلت بالمجلة فطلبوا مني الانتظار، وبعد ثوان سمعت صوتها فاستردت أنفاسي، لكنها باغتتني بصوت قلق: أأنت بخير؟

أجبت وقد عدت للتوجّس: ما الأمر؟

قالت: جاء أناس أمس إلى المجلة، سألوا عن بحر وعنك، قلنا إنكما لم تأتيا إلى هنا منذ فترة، فرحلوا ولم يتركوا أسماءهم، بدوا مقلقين كثيرًا.

سكتّ، وقلت لها: سأخبر بحر على أي حال، ربما يعرفهم.

وسادت لحظة صمت، ثم قالت ليلى: انتبه لنفسك، أرجوك. الأمور هنا غير مطمئنة أيضًا.

سألتها عمّا تقصد، فأعادت القول: فقط انتبه لنفسك.

وأحسستُ بحرقة في طرف عيني فشكرتها، وأغلقت الهاتف.

وتذكرت فجأة أنني استيقظت في الليل على أصوات طرقات بدت كأنها على الجدار، وظننتها حلمًا وربما كانت كذلك فعلًا ولست متأكدا الآن.

أخبرتُ بحر بما قالت ليلى، فبدا عليه القلق بدوره بأكثر مما ظننت، وقام يأخذ حقيبته الصغيرة من وراء الباب وطلب مني أن أفعل مثله، وغادرنا الموتيل سريعًا.

ووقفنا بالخارج على حدود النخل والصحراء حتى وجدنا سيارة أجرة عريضة لتنقلنا إلى أقرب مدينة، وحين غادرنا كانت الشمس تتجه بسرعة إلى قلب السماء.

لكن بعد ساعات توقفت السيارة فجأة ورفضت أن تدور، وقال السائق إن عليه أن يجلب شيئًا ما لإصلاحها، نظرنا حولنا فلم نجد شيئًا، لا محال ولا مقاهي ولا ورش، قلنا للسائق سنذهب معك، قال إننا لن نتحمل المشي في الشمس، وأمام ذهولنا تركنا وابتعد حتى صار نقطة اختفت بعد دقائق.

وألفينا نفسينا وحيدين هنا، جلسنا في السيارة صامتين، بلا ماء ولا طعام ولا شبكة هاتف، ومرت ساعة وساعتان، وبدأت الشمس رحلة عودتها فغادرنا السيارة.

وقررنا أن نمشي.

ومشينا حتى اختفى الطريق نصف الممهد، وصرنا وسط أرض هي مزيج من التراب والرمل، وقال بحر إن علينا أن ننتظر أي عابر هنا كيلا نضيع تمامًا في الصحراء.

جلسنا واستندنا إلى حقيبتينا الصغيرتين، وبدأ يغلبنا النعاس، وتمدد بحر وقال لنتابع حين نصحو.

لكن النعاس كان كاذبًا، لم ننم، ثم قرر بحر فجأة أن يجيب سؤالي:

أنا لم أخترك يا سيف.

وصمت لحظة وتابع: لم أخترك لترافقني في الرحلة، الواقع أنني لم أسمع عنك ولم أقرأ لك ولم أعرفك قط. رشحتك ليلى لي، لكنها لم تخترك أيضًا. لقد سردت عنك ما أخفيته أنت عني، واستنتجت أنا البقية، فوجدتك مناسبًا جدًا لرحلتي، كأنك تغلق الدائرة التي انفتحت منذ وعت عيناي العالم.

ثم التفت إليّ وتابع:

لماذا أغلقت هاتفك يا سيف؟ يوم حدث لعلياء ما حدث؟ أكنت تعلم أم لم تكن تعلم؟

دعني أخبرك ما أظنّ:

لقد كنت تتوقع، كنت تعرف في داخلك ما سيحدث، كنت تعرف أن الفرحة الكبرى مجرد وهم، لأنهم لن يستسلموا بسهولة، أو لن يستسلموا أبدًا. وأنهم لو استسلموا، فسينتقمون أولًا. دعني أحيِّك يا سيف، لقد أغلقت هاتفك في الوقت المناسب، أغلقته بعد أن جعلتها تتوهم أنك هناك، بطل في قلب المعمعة. برافو سيف، وغد أصيل، هارب أصيل. مثلي بالضبط.

كنت أنظر إليه بين التساؤل والذهول، وكان يتابع: أنا لم أنس ذلك الفتى عند البحيرة لكني عرفت بعدها أن أبشع الجرائم لا عقوبات لها في النظم القانونية، فمثلًا، لا يسجنك أحد لأنك أحلت حياة شريكك إلى جحيم ملؤه الغيرة والاحتقار ونقص الثقة بالذات، لا يسجنك أحد لأنك تفعل بالضبط ما يثير جنون أقرب الناس

إليك، لا يسجنك أحد لأنك تختبئ وتوهم الآخرين أنك في الصدارة، أو حين ترتكب بالضبط ما يرعب الآخرين الذين فتحوا بوابات أمانهم لك.

هيمن الصمت مجددًا وقد ماتت على لساني عشرات الأسئلة، وضمّ بحر رأسه بين كتفيه وغاب في النعاس بهدوء عجيب. وتطلعت حولي وكان المساء يهبط وخيّل إلي أن ضربات قلبي تسمعها النجوم. وقلت إن لديّ أسئلة كثيرة أوجهها لليلى حين نعود، إذا عدنا، وقلت إن الخوف سيبعد عني النوم مسافة أكبر من هذه الصحراء.

ومع ذلك فقد وجدت نفسي أستيقظُ فجأة فعرفت أنني نمت، وكان نور يشبه الفجر في السماء فعرفت أن نومي كان طويلًا كذلك.

نومك أثقل من الليل نفسه، كانت علياء تقول لي في الماضي، وحين صحوت الآن تمامًا وتذكرت كل شيء نظرتُ فلم يكن هناك أحد ولا شيء.

كنت وحدي بلا حقائب ولا أوراق، وكنت وحيدًا بلا بحر.

وكان هاتفي في جيبي جثة لا تنطق.

وقمت، بين الصحو والنعس أتحرك وأدور في الأنحاء وأدور حول نفسي، ولم يكن سوى الصمت والرمال.

ورأيت آثارًا عديدة متداخلة في الرمل ولكن من أنا حتى أفهم كنهها، ورأيت بقعا داكنة يبتلعها الرمل وتوسّلت ألا تكون دمًا، ولم أدر أعَليّ أن أتصور

السيناريو المرعب أم عليّ أن أتشكك في بحر نفسه وهو تصور لا يقل رعبًا لكنه أخذ يشحب بمرور الدقائق.

وقرصني الجوع لكن النور ازداد، وهبّت نسمة اعتبرتها أملًا طفيفًا، وبدأتُ السير مجددًا.

(١٠) الخبيئة

في البيت تقلبتُ بين الصحو والنعاس والموت والحياة.
أنقذتني سيارة عملاقة تنقل الماء بين مراكز الصحراء، تطلع إليّ السائق من أعلى فذكّرني بنظرة سائق الترام حين وقفت خلف بحر في الإسكندرية، غير أنه على عكس سائق الترام توقف، فتح الباب بجواره وأشار إليّ فصعدت بصعوبة، وحاول أن يفتح حديثًا لكني غبت عن الدنيا ثانية، «لو كان النوم بحرًا لغرقت فيه، لأنك أثقل منه» كانت علياء تفلسف الموضوع، فأقول: أنامُ مطمئنًا لأنكِ هنا.
وعلى حدود المدينة أنزلني السائق وطلب مني التزام الحذر، قال إن الهوجة قد عادت، وإن الشوارع ليست آمنة وإنهم أعادوا فرض حظر التجوال في الليل.
ولم ألاحظ سوى أن الشوارع أقل ازدحامًا من المعتاد، ولحقت بالطيف المتبقي من النهار، واشتريت شطائر من مطعم شبه خاو أسفل البيت، ورأيت سيارتي الزرقاء التي لا يطمع فيها أحد مطمورة تحت أطنان من التراب، وصعدت ولم أعثر في جيوبي على المفتاح، فأخذت أدفع الباب وأركله ولم ينفتح على صوت الضربات أي باب آخر حتى انكسر بابي، دخلتُ وأسندته بمقعد ونمت.
ونهضت واكتشفت أن الكهرباء مقطوعة، وتحسست مكاني في الظلام حتى عثرت يدي بالطعام فالتهمته وشعرت بهبوط قوي فتمددت في مكاني مرة أخرى، ثم

حاولت الاتصال بليلى قبل أن أتذكر أنني لم أشحن الهاتف، جربت هاتف المنزل لكن لا رقم ليلى ولا أي رقم آخر كان يستجيب، وغفوت مجددًا.

في الصباح بقيت الكهرباء مقطوعة، أحضرت أوراقًا من الداخل وجلست أكتب ما رأيت. وكانت الأوراق تتكوم كما لو كنت أكتب بيدي الاثنتين، والساعات تتلاحق كأنها تسابقني.

ثم كان الوقت غروبًا لكن الضوء كان يشبه الصباح الباكر، حين طرقت الباب طرقات مألوفة من زمن ماض، ثم انفتح الباب وأزاح وراءه المقعد بحذر، ودخلت ليلى ووضعت حقيبتها على الأرض وجلست.

صمتت لحظة وقالت: وجدت تلك أمام بابك.

وانحنت وأخرجت من حقيبتها صندوقا معدنيًا في حجم علب البونبون القديمة، تنهدت ووضعت يدها على طرف الغطاء وفتحته. وهي تنظر إليّ.

نظرت، كان في الصندوق أوراق مبعثرة، وشيء من رماد، وفوقها استراح زوج عوينات حمراء.

نظرت إلى العلبة مذهولًا وهمست بلا صوت: بحر!

ثم غفوتُ ثانية وأفقت، وكان المساء يفيض إلى داخل الصالة فيملؤها، ونظرت ورأيت ليلى تقرأ على ضوء شمعة، تطلعت إليها كأنما لأتأكد من حضورها حقًا هذه المرة، وتمنيت لو نبقى هكذا للأبد، وأحسّت هي بحركتي فقالت: انقطعت الكهرباء.

سألتها، من أين جئتِ بالشمع؟

قالت: الكل يحمل شموعه الآن.

وأشارت بإبهامها إلى مدخل الصالة وقالت: لماذا تترك بابك مفتوحًا.

ونظرتُ إلى الباب في الظلمة فبدا مغلقًا بالكرسي مرة أخرى، وبحثت عن الصندوق فلم أجده.

أما ليلى فعادت إلى الأوراق قليلًا، ثم رفعت رأسها وقالت: هل هذه الأماكن حقيقية فعلًا؟ هل قابلت هؤلاء الناس؟

لم أرد.

فنظرت ليلى إلى الأوراق ثانية وتابعت بابتسامة مترددة: ومن هو بحر الذي تزعم هنا أنني كلفتك بمرافقته؟!

ثم عادت تنظر إليّ: سيف، أما زلت ترى الموتى؟

بعد النهاية

قطار في رأسي

قالت علياء: لم أكن أشعر بجسدي، لكني أدركت بشكل ما أني عارية، ورأيتهم يومئون إليّ برؤوسهم المنخفضة تحت الكشاف، ويتحدثون إلي من وراء الأقنعة البيضاء ولكن كل ما كنت أسمعه صوت قطار.

صوت قطار ثقيل يتحرك فوق قضبان عتيقة فيصدر صوتًا منتظمًا وأشعر أنه سوف يحملني إلى مكان هادئ، أشعر بهم يكلموني ولا أعرف كيف عرفت أنهم يبتسمون من وراء الأقنعة لكن صوت القطار كان الحاضر الأقوى في غرفة العمليات. وحاولت أن أحرك رقبتي وأن أميل لأرى القطار وتخيّلته ذهبيًا ذا مدخنة خشبية مضحكة كقصص الكارتون لكني لم أستطع أن أحرك رأسي رغم أنني كنت أظن أنني أحركها. لا أعرف إن كنت أستطيع أن أصف ذلك لكن بدا الأمر كما لو كنت تقطع خطوات فوق سير متحرك يمضي عكس اتجاهك، أو تجلس في قاعة انتظار عطلوا الوقت فيها بلا رجعة. كنت هكذا لا أتحرك ولا أتكلم ووضعوا شيئًا على وجهي وعلى أنفي وقالوا: عدّي إلى ١٠ ولم أعدّ قط وإنما فجأة: «تيك. تاك».

وصمتت علياء لحظة كمن يبحث عن الكلمات ثم كررت: تيك. تاك. أناموني وأيقظوني، أماتوني واستردوني، هكذا، تيك تاك، كأنهم ضغطوا زرًا، وكأنني مكنسة كهربية.

ونظرت إليّ: أنا مكنسة؟

ابتسمتُ رغمًا عنّي: لا أظن ذلك.
تابعت: بلى أنا كذلك، ضغطوا الزر مرتين، فأماتوني وأحيوني، كأنهم آلهة، أو مندوبون عن الله.
وصممت مرة أخرى ثم أردفت بما يشبه ما سأسمعه من بحر بعد عامين: إذا كانوا مندوبين عن الرب فلم تأخروا إلى هذا الحد، لماذا لم يرسلهم مبكرًا، وإذا كانوا آلهة فلم لم يكن حنونًا بقدرهم؟ أم أنه فقط لا يبالي؟
قلت: لا أعرف. فلم أسمع منه منذ زمن طويل. ربما ينبغي أن تخبريني أنتِ. لك قدراتك أيضًا. أنا الأرضيّ الوحيد هنا.
لم تبتسم، أجابت: لا نعلم بعد، ونظرَت إلى نصفها السفلي المختفي تحت الضمادات، وتابعت: سأخرج من هنا بجسد ناقص، فتُرى ماذا استأصلوا مع رحمي أيضًا.
وسكتت لحظة كأنها تكتشف مرة أخرى تلك الحقيقة.
لم أحر جوابًا.
ثم بدا أنها قد اتخذت الكثير من القرارات في الأيام التالية دون أن تفصح لي لكنه بدا جليًا في تصرفاتها، ومع تعاقب الأسابيع بدا ابتعادها عنّي حقيقة لا لبس فيها، ولم تقل لي شيئًا لكني أخذت أفكر في أصابعي التي أفلتتها في الحلم كجريمة، وفي ابتعادها عني كعقاب.
وفي محاولتي لاستعادتها اقترحت عليها العمل في المجلة كمترجمة مستفيدة من مهاراتها اللغوية، وجاءت بالفعل وحققت نجاحًا سريعًا وإن ظلت بطرق لا تنتهي

تواصل ابتعادها عنّي، ثم دخلتُ يوما فوجدتها تمسك بعدد المجلة المنسي الذي دهسته الأقدام الثائرة وكنت ظننته قد ذهب إلى العدم، كانت تفتح الصفحة على مقالي المخزي الذي طلبه رئيس التحرير وتقرأ، وشعرَت بوقوفي فنظرت إليّ وقلبت الصفحة، وكادت أن تقول شيئًا ثم أغلقت شفتيها، وتركت النسخة على المقعد وابتعدت، وتركتني أمام النافذة نفسها ذات الأشجار.

بجوار شمعة مهتزة

قلتُ لليلى: ابقي هنا الليلة.

قالت: جئتُ فقط لأطمئن عليك.

ونظرت إليّ لحظة إضافية ثم نهضت: لي صديقة تسكن بالقرب منك، أوصلني عندها أرجوك.

تحججتُ: سيّارتي ميتَة.

ابتسمت ليلى: لا أذكر أنني رأيتها حيّة قط، وصديقتي أقرب من أن نحتاج إلى سيارتك.

وسبقتني إلى الباب فخرجت وراءها، وعلى أقدامنا وصلنا سريعًا إلى حيث صاحبتها، وكانت ليلى تحاول الاتصال بها ونحن في الطريق لكن شبكة الاتصالات كانت سيئة، فقالت لي قبل أن تصعد إليها: فقط انتظرني هنا ٥ دقائق.

انتظرت أسفل البناية مترقّبا، ونزلت ليلى بالفعل مرة أخرى وقالت: يبدو أنها ليست بالداخل.

والتمع ضوء عمود إضاءة قريب فانعكس في عينيها وذكّرني بأشياء، وارتجفت قليلًا وقلت لنفسي: تماسك.

وسألتها: أما زلتِ تسكنين بيتك البعيد نفسه؟

أومأت إيجابًا بلا صوت، قلت: لنعد إلى عندي إذًا.

هزت رأسها فيما يشبه اليأس، ثم سارت إلى جواري في صمت، بينما تجرأتُ على أن أفكّر: هل يُصلح غياب الصديقة كل شيء؟

ومشينا بلا كلام، ولم ننتبه إلى أن موعد حظر التجوال قد حلّ بالفعل، إلا حين رأينا السيارات تتسابق لتحاول

المرور قبل الموعد، وأمامنا اقتربت مدرعتان بهدوء من جهتي الشارع وأغلقتاه تمامًا.

وأمسكت بيد ليلى وقطعنا طلعت حرب مسرعين باتجاه عابدين لكننا وجدنا الطريق مسدودًا بالمدرعات وبالعساكر الذين أشاروا إلينا بالرجوع، فرجعنا القهقرى مرة أخرى ودخلنا من الممرات بين جواد حسني إلى شريف إلى قصر النيل، ورأينا الأسلاك الشائكة تبدأ في غلق الشارع من الجهتين، ونظرت إلى حيث ينتصب فندق مرتفع وخاو، ووجدت بناية مألوفة ترتفع متعبة بجواره، وقلت لليلى، أنا أعرف هذه البناية.

اتجهنا نحوها وعبرنا المدخل سريعًا ولم نلق أحدًا في مدخلها فأخذنا نصعد في السلّم، الأبواب مغلقة والبيوت تبدو مهجورة بلا صوت وتساءلت للحظة في داخلي هل وجد سكان الضوضاء أخيرًا من يخرجهم. وصعدنا في الدرج الدائري حتى غرفة السطح، التي التقيت فيها وبحر ذلك الشاب العصبي الشاكي قبل ما يبدو كأنه الأبد، طرقتُ باب الغرفة فانفتح، دفعت الباب، دخلنا، لا أحد هنا.

نظرنا عبر النافذة الزجاجية الواسعة، الميدان بعيد ومغلق ومظلم، وقلت لليلى إن البناية كانت عامرة بالسكان حين زرتها مع بحر، وعلى الضوء القادم من الفندق الفخم القريب، الصامت رغم ذلك، رأيتها تنظر إليّ بين الشك والقلق والتصديق. ثم أمسكت بيدي وقالت: دعني أقل لك شيئًا.

وسكتت ثانية ثم واصلت: لنعتبر هذا الأمر كله كما يبدو عليه، لنعتبره قصة تكتبها، أعني بحر والرحلة وكل شيء.

وصمتت لحظة وتابعت محاولة الابتسام: وشكرًا أن منحتني فيها هذا الدور.

وقبل أن أجيبها، بدأ الهدير.

القيامة كعطل فني

مرة واحدة فقط تسنّى لي أن أطّلع على أوراق بحر، كان قد نسي حقيبته نصف مفتوحة حين اصطحبه موظف التعطيل يحيى لرؤية الإدارة، جلست أنتظرهما في المقهى على ناصية شارع الجمهورية، ورأيت كلمة القيامة تطل من رأس ورقة أسفل سوستة الحقيبة المفتوحة، فسحبت الورقة بحذر وقرأت:

ستبدأ القيامة من عند حلاق سيذبح بالموسى فجأة زبونه المستسلم بين يديه، من عند جزار سيكمل حركة يده بالساطور ليصيب المشترين المتحلقين وسط اللحم والذباب.

قادة السيارات سينطلقون فجأة ليكسروا الإشارات ويدهسوا العابرين، الأمهات سيجلسن - حقًا لا تهديدًا هذه المرة- فوق أطفالهن، أرى منذ الآن تلك العاهرة التي ستسحق بفخذيها خصيتي الزبون، صنائعية الكهرباء سيبدلون الأسلاك ليكهربوا البيوت والمنشآت، عاملو المجاري سيخلعون أغطية البلاعات لتتحول إلى مصائد في الليل، النجارون سيمرحون كثيرًا بالمناشير، والحدادون بالمطارق.

سيغرز الطبيب محقنه في عين المريض، المراكبي سيكسر الدفة وسط ذعر الركاب، سيشعر المسلحون من الرسميين وغيرهم برغبة جنونية من التخلص من كل الرصاص في أسلحتهم فلن يخفت صوت الطلقات إلا لتنكتم في الأجساد، في الحافلات المزدحمة ستمتد

أيدي الركاب لخنق المحاصرين بالزحام، الجالسون على سور الكورنيش سيجدون من يدفعهم فجأة ليسقطوا في النهر وفي البحر، شاحنات النقل الثقيل ستكمل طريقها بأقصى سرعة فوق حطام الملاكي الصغيرة الهشة، الأوناش وآلات البناء ستدور بأقصى سرعة محطمة كل شيء، وفؤوس المزارعين ستفلح الرقاب بدلًا من الأرض.

العـــودة

بعد لحظات بدا واضحًا لي ولليلى أن اهتزاز البناية لم يعد مجرد وهم سبّبه الصوت الهائل الذي اندلع فجأة، بل ارتجّ الزجاج ولعبت المصابيح وتزحزحت المقاعد كما لو أن زلزالًا صغيرًا يلهو بنا. وذهبتُ إلى الشبّاك ونظرت إلى أسفل ورأيت، كانت صفوف لا تنتهي من الناس تأتي من أول الشارع ببطء وبخطوات ثقيلة ترجّ كل شيء، وفي الظلام لم أميّز وجوها ولم تكن هناك لافتات ولا هتاف ومع ذلك بدا شيء مألوف في الحشد لم أستطع تفسيره.

وعدت أنظر إلى ليلى وإذا بي أرى كأن خيطًا من الشيب ظهر فجأة في شعرها، ثم تنبهتُ إلى تراب أبيض رقيق بدأ يسقط من السقف والجدران، تراقصت ذرات الغبار في الضوء الآتي من الفندق، ورأيت ليلى تنظر إليّ كأنها ترى في رأسي الشيء نفسه.

ثم ابيضّ رأسانا وابيضت ملابسنا وابيضّت الأرض، وسقط الحجر الأول من السقف وتشقّقت الجدران، ومن

الشبّاك كانت الصفوف لا تزال تقترب.
وتذكرتُ قول بحر حين سألته في الليلة الأخيرة ونحن نقاوم النوم في الصحراء، لماذا عاد حقًا ولماذا يجمع تلك الحكايات، فأجاب كمن يذكر حقيقة معروفة: لأن كل شيء سينهار. وأخذت كلامه وقتها على محمل المجاز.
وحين جذبتُ ليلى إلى الباب، كانت السلالم قد بدأت الانهيار ولم يعد لنا مهرب.
ومثل طيف تذكرت يوم أشار لي بحر نحو السقف وهو يحكي عن قرية الزوايا، فأخذت بذراع ليلى وعدنا، وعند العمود الأيمن بجوار النافذة وقفنا، ألصقت ظهرها بالحائط وأحطتُ جسدها بجسدي.
وتذكرت ردهة المشفى حين قادتني الطبيبة في ممر دائري طويل، ووجدت علياء هناك وحيدة بين النعس والصحو، حين جلستُ على طرف الفراش، وفتحت علياء عينيها وأغمضت عدة مرات كأنما تتأكد مني، ثم أمسكت كفي ووضعتها ببطء فوق بطنها.
وهمست: لا شيء هنا.
وقالت: كنت سأخدعك وأسمّيها ليلى.
وتابعت: لكن لا هي ولا غيرها الآن، لم يعد هنا شيء ليحمل أحدًا، استأصلوا كل شيء.
نشجتُ ولم أرد.
قالت علياء: أنا ليلى.
ولم تسمح لي بأن أناديها علياء منذ ذلك اليوم.

أما الآن وهنا فقد نزلنا إلى أرض الغرفة وهي ترتجّ، ولم أعرف بعد أهذا صوت الانهيار، أم خطوات الزاحفين بالأسفل، ماذا كان اسم صوت الخطوات يا علياء؟ الوئيد؟

وزحفتُ إلى النافذة مجددًا ونهضت أطل من ورائها، وبدأت تبين لي وجوه تحت الضوء الآتي من الفندق، وبدأت أرى لماذا بدت لي من قبل مألوفة، فقد رأيت أماني السيد تسير بينهم بخطوتها الشاردة، ورأيت حسن ياقوت بائع الهدايا، ورأيت زينهم، ورأيت من بدوا كأنهما أمي وأبي وكان –للغرابة- بفانلته الداخلية البيضاء نفسها، وبحثتُ عن نفسي مع علياء، لكن يدا جذبتني قبل أن أجدنا.

والتفتُّ فوجدتها تنظر إليّ، وجذبتني فجلسنا مرة أخرى على الأرض المهتزة، واحتضنتني بقوة، وقالت: ثمة شيء لم أفقده بعد، اسمع.

وقرّبت شفتيها من أذني، وغنّت لي الصمت.

تمت

القاهرة ٢٠١٧